رواية

مصطفى الكتّاب

$1 + 1 = 1$

# حفلة طلاق

$1 - 1 = 1$

الطبعة الأولى
شباط فبراير / 2008

بسم الله الرحمن الرحيم

## لماذا حفلة الطلاق؟

من المؤكد أن الاحتفال بالطلاق أمر غير مألوف في المشهد الاجتماعي العربي العام الذي تتفق محاكم عاداته التليدة على إعدام حياة المطلّقَة، وشرط الاستئناف أن تبقى ممهورة الجبين بخاتم الذل المُثبّتِ لوصمة العار مدى الحياة، ولكن لو تتاح الفرصة لزنّيرة لصاحت بملء حنجرتها من قلب صحراء الساقية الحمراء ووادي الذهب " الزواج والطلاق كلاهما قسمة ونصيب"، وبقدر ما نتباهى بفضائل الأول ونحتفل به جازمين على أنه ممر آمن نحو قفص السعادة الدائمة، فإنه بالإمكان أن نحتفل بالثاني مهما كان بغيضاً، بنفس القدر، ليس بصفته تمرداً على حكم الإعدام غير القابل للتقادم والمطبّقِ بأثرٍ رجعي في طول وعرض جغرافيتنا العربية، بل لأنه أولاً تنويه عن تعدد وتنوع دروب الحياة التي تتيح فرصة وحق اختيار الطريق الذي قد يُجنّب سالكه تجرّعِ عذابات خفية تُمْعن في تدمير أغلى ما لدى الإنسان، كرامته التي لا يوجد ما هو أثمن منها للحفاظ عليه.

تجري أحداث رواية "حفلة طلاق" في أرض أديمها سمادٌ للحرية، وغبارها لقاح شجرتها الوارفة، واسعة فسيحة مترامية الأطراف، تَصحّرتْ حتى ليرتد عنها البصر وهو حسير، تصلبت حتى استعصى الزرع فيها، لكنها حين تثمر، تنجب مولودا - ذكرا كان أو أنثى - تورثه كل صفاتها، فهو معجون من طبقات تربتها، مشبع بهوائها، حدود رؤيته خط الأفق، يستقبل الحياة كما لو أنها ملك يديه، يعشقها على طبيعتها بلا قيود وبلا حدود وبلا فوارق، إذ يرافقه في كل مراحل نموه إيمان منغرس في رحم الأرض - مهد نشأته - بأنه صنو الحيوان والأشجار والطيور، لأنها جميعا وهو من بينها، عناصر شرطية لتكامل المشهد الوجودي الذي كبُر فيه.

مصطفى الكتّاب

دمشق 10 حزيران/ يونيو 2006

# حفلة طلاق

خِيّمٌ هنا وهناك تسد الأفق، ألوانها متباينة وأشكالها كذلك، منها المصنوع من الشَّعَر ومنها المحاك من مختلف أنواع الأقمشة، وقليلها يحمل علامات المصانع التي أنتجته، أو المنظمات الإنسانية التي تبرعت به، الهلال الأحمر الجزائري، هدية من الشعب العربي الليبي ...الخ. خيّمٌ تعج بالحياة وحركة الناس، أسراب من النساء اللائي يلتحفن بالسواد بعضهن يحمل الحطب على رؤوسهن، وأخريات تجمهرن حول شاحنات يفرغن حمولتها، وكتل من الأطفال من مختلف الأعمار ينتظمون في صفوف أمام خيام نصبت عند الأطراف بشكل مستطيل أو دائري، تتمايز عن بعضها حسب اليافطة التي ترفرف في سماء هذه أو تلك للدلالة على اسم مدرسة معينة، كأم أدريقة، أو الداخلة ... أو غيرها. لكل شأن يغنيه، ومهمة ينشغل بها ضمن توزيع بدائي للأدوار، أملته متطلبات حياة التجمعات السكنية التي باتت تملأ منطقة الرّابوني منذ منتصف خريف العام 1975.

ـ لقد فاجأتني بسفرك، وكم وددت أن لا تذهب قبل أن أفرح بك. قالت منّة مخاطبة شقيقها مُلايْ وهي تسير بجانبه نحو السيارة التي كانت تنتظره خارج المخيم.

. الظرف غير مناسب، وسيكون هناك وقت لما تريدين، ردّ مُلايْ، أما الآن فليس لدي ما أقدّمه لأي امرأة، وإني لأتساءل من هي الشقية صاحبة الحظ العاثر التي ستقبل بزوج مثلي، "لا يملك كبداً فوق كبده"، ثم التفت إليها مبتسما، وربت على منكبها هامساً: دعكِ مما يدور في رأسك، واقرأي الفاتحة على نية اللقاء.

بقيت متمسكة بيده دون أن ترفع بصرها إليه، لتردف: أنت تتقن التهرب يا مُلايْ، لكنك تنسى أنك ذاهب إلى الحرب ولا نعلم متى تعود، ثم غصت بعقدة ضغطت على حنجرتها قبل أن تقول بين دموعها: لا قدّرَ الله كل شيء ممكن، ألا يجدر بك أن تفكر في خَلَفٍ يحمل اسم عائلتنا التي لم يأت منها سوانا نحن الاثنين؟ لا تتذرع بالمال، لأنك تعلم أن المهر ربع دينار، ولا تقل لي السكن فالمنظمة توفره للكل، بالإضافة إلى المؤن التي توزعها على الجميع.

. لقد تقدم النهار كثيراً يا منّة، وأمامنا مسافة طويلة، والرفاق ينتظرون منذ أزيد من نصف ساعة، وأنت تعيقينني، ألا ترفقي بنا وتؤجلي هذا الحديث حتى أعود؟ هيا كفكفي تلك الدموع فأنا لا أحب أن أرها في هاتين العينين الجميلتين. انحنى عليها يقبل رأسها ويقول آمين، واستدار بسرعة نحو رفاقه المنتظرين، وركب معهم ملوّحاً بيده راسما علامة النصر، وابتسامة على محياه.

ابتلعت البيداء سيارة اللاندروفر بلمح البصر، وبقيت منّة واقفة لبرهة في مكانها تتمتم بما تحفظ من آيات القرآن الكريم وتنفثه في الاتجاه الذي ذهبت فيه سيارة شقيقها مُلايْ ورفاقه، ثم عادت إلى خيمتها وسط تلك اللوحة المتنافرة الألوان. تسير وتتلفت خلفها مستأنسة بما تثيره السيارة من غبار يتلاشى في الأفق البعيد، ثم تعود بنظرها إلى الأمام، وتمرر شريط حياتها في ثوان، لتقارن بين مدينتها هناك في أرض الوطن، وبين مخيمها الذي أقيم على تلك الأرض التي لا توأم لها على وجه البسيطة. أرض صماء غير مروضة، تتمنع على النباتات أن تنفذ من باطنها وتكبت أنفاسها حتى تموت، وتفلُّ وتد الحديد الصُّلب بحيث لا يستطيع اختراق قشرتها إلا بعد أن يتصبب هو وضاربه عرقاً، وترفس الخيّم بالزوابع الرملية في أوقات الهجير والقيظ، كأنما تتعمد إخافة من يحاول الإقامة عليها، ألوانها موحشة، وسماؤها دائمة الاكفهرار، لكن هواءها نقي ومنعش، تقول منّة لنفسها بعد أن جففت آثار دموعها في ختام مقارناتها، لتستطرد في صمتها، لأنني أنا وجميع النساء مثلي، رّوضنا تلك الصعوبات ليس بالصمود وحده، وإنما برفد الحياة بمعين حب الأمومة وإرادة البقاء، وها نحن نروي مشاتل الخير لتزهر ورودا تخترق جدران الشر الذي أحاق بنا. ثم تواصل تقدمها بخطى من يشعر بالخيلاء.

التحقت منّة بمخيمات اللاجئين صحبة زوجها الممرض أحمد الذي تشاركت معه دورة التعليم في المعهد ثم بعد ذلك بيت الزوجية الذي لم تُعمّر سعادتهما فيه إلا أحد عشر شهراً، حملت هي في آخرها بابنتهما التي شاءت الأقدار أن تولد وهي لاجئة كما هو حال أبويها. كانت شابة قاربت الثلاثين من العمر، تنحدر من عائلة متوسطة الحال ماديا، ما مكنها من دخول المدرسة الابتدائية في العيون حتى تحصلت على الشهادة الإعدادية (التعليم الأساسي)، ثم ارتأى أهلها أن تتعلم حرفة تفيدها في حياتها المستقبلية فأدخلوها معهد التمريض لدى القسم النسائي الإسباني، وكانت تلك خطوةً فتحت لها الطريق نحو زواج مبكر، رغم تذمر الأبوين اللذين كانا يقولان إنها وحيدتهما، وما من داع للعجلة في الأمر، لكنها أقنعت أمها بأنه الزوج المناسب، خاصة عندما بسطت معها القواعد المألوفة: الزواج يا أمي الغالية وإن كان رباطاً مقدساً فهو لا يقام على الأبدية وإنما على احتمال الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان، والطلاق كما تعلمين ليس وصمةَ عارٍ في جبين المطلَّقة، لأن الزواج كما الطلاق كلاهما قسمة ونصيب، أخبريني واصدقيني القول، كم مرة أطربتك أنشودة:

يا زين سعد اشباب اتخلاّت    سالمه والراجل ما مات

(المعنى: يا لحسن حظ وطالع شابة تطلقت خالية من العيوب الأخلاقية ولم تترمل)

وفي النهاية أنا لن أكون حالة استثنائية، سأتنازل عن ربع المهر كما فعلتِ أنتِ ، بل كما درجت العادة، مقابل شرط لا سابقة ولا لاحقة. بهذه المسلمات التقليدية أفحمت منّة أمها فتحولت الأخيرة إلى صف ابنتها، وبذلك تغلبتا على معارضة الأب.

مرت أشهر على إقامة منّة في المخيمات حين جاءها من يؤكد لها وجود شقيقها مُلايْ في جبهة القتال الشمالية، طارت من الفرح، وعادت بها الذكريات إلى بيتهما في حي الزملة في العيون، وكيف كانت هي من تدبر طريقة إلزامه بمواصلة الدراسة حتى أكمل تعليمه الثانوي متأخرا شيئا ما، بيد أن اشتعال فتيل الحرب وضرورة صد زحف المحتلين القادمين من الشمال ومن الجنوب دفع به إلى التخلي عن حلم الجامعة مثل كل الشبان من سنه، فسارعت بإرسال رسالة إليه تخبره فيها بأنها تقيم في مخيم يسمى مخيم النصر، وتعمل ممرضة بصحبة زوجها أحمد، وأنهما رزقا طفلة جميلة أسمياها شروق، وتتأسف على انعدام إمكانيات التصوير الفوتوغرافي في المخيم وإلا لكانت بعثت له صورة الطفلة، ثم طلبت منه في آخر الرسالة أن يأتي لزيارتها، وإن لم يفعل من أجلها هي فليكن من أجل البنت التي بدأت الآن تتفوه بكلماتها الأولى، وهي صورة طبق الأصل عن أمهما.

بعد أشهر تفاجأت منّة بمقدم مُلايْ، أشعث أغبر يرتدي ملابس غير متناسقة، شَعْره طويل يكاد يغطي منكبيه، وينتعل حذاء بالياً من الجلد، دخل فرِحًا، واتجه مباشرة إلى الطفلة التي ألفاها واقفة في وسط الخيمة ليحتضنها بين ذراعيه، وهو يقول كم أنت جميلة يا حبيبتي، وصار يدور بها ويكرر: ليت أمي تراك، كم أنت شقية بدون جدّةٍ مثل أمي.

صراخ وزغاريد وعناق وبكاء ودموع وهرج تحول إلى فرحة كبيرة بمقدم مُلايْ، الذي كان شغل منّة الشاغل إلى درجة أنها حين تريد الجزم في أمر أو التأكيد القطعي على شيء، تقسم بحياته. أخبرها أنه سيقضي معها أسبوعاً، ولما استنكرت قِصَرَ المدة أجابها: تركت رفاقي هناك يخوضون المعارك وهم في حاجة إلى كل زند وكل إصبع قادرةٍ على الضغط على الزناد، ولا يمكنني التأخر عنهم، وإذا كان كل واحد منا سيضعف أمام أمّ، أو زوجة، أو أخت لحوح مثلك، فمن سيقاتل إذاً؟ حاولت ثنيه عن موقفه، لكنه كان يزداد تمسكاً برأيه كلما واصلت محاورته حتى يئست من إقناعه وأخذت تنظر إليه غير قادرة على فهم كيف تحول إلى رجل مفتول العضلات قوي البينة، شاربه كثيف، وقسماته تدل على الجدية، بحثت عن الطفل المدلل الذي كثيرا ما رفض النهوض باكراً، متحجّجاً بأنه لا يجد الثوب المناسب، أو أنه تعب من المطالعة في الليل، أو أنه، أو أنه... لكنها لم تجده، فبدأت تبحث باجتهاد مضنٍ عن سبب تستبقيه به ولو لأسبوع آخر، فخطرت لها فكرة الزواج، واستحسنتها لسببين، الأول، ما يتطلبه تحضير الأمر من وقت، والثاني، إن تحقق لها ما تريد تكون قد ضمنت استمرار التواصل بينهما، لكن هيهات، قالت منّة لنفسها وهي عائدة من وداع مُلايْ ورفاقه وقد شعرت بأن روحها فارقتها لحظة مفارقته، لم تكن منّة الوحيدة التي تعاني مرارة الفراق والتوجس من مستقبل كل إشارات الطريق فيه رسمت على شكل علامات استفهام تعيق النظر إلى الخلف وتحجب الأمام. قوافل البشر من كل حدب وصوب، لغتهم آهات الألم الظاهر من المعاناة التي تزيدهم غماً على غمّ، خاصة حين لا

يجدون تفسيرا لكل ما يجري، ولا يملكون الإجابة على السؤال: وبأي ذنب يُقتلون؟ ويرفضون قبول ما سوّغ به داوود ضمّ نعجة أخيه إلى نعاجه.

ظلت السيارة المكشوفة تصعد وتهبط مع مسالك الأرض الرملية الصلبة تجتاز هذا الوادي وذاك الرافد الصغير، تأخذ أنفاسها تباعاً مما تَعُبُّ من وقود غير مبالية بما يعترضها من وعورة في الطريق كأنما كانت تنحدر من عَلٍ، سائقها متمرس ماهر يتجاوب مع متطلبات محركها كما لو كان ابنه الذي ربّاه، أما بقية رفاق الرحلة فحتى لو أرادوا تبادل الحديث فإن ذلك لم يكن ممكنا إلا بالصراخ لأن قوة صوت محرك السيارة، وسرعة تدفق الرياح العكسية تعرقل أي تواصل شفهي عادي، فكانت الأوجه والقسمات هي الرسل التي تنقل ما يجول في الخواطر لأولئك الرجال الخمسة الذين جمعتهم ظروف استثنائية، وحولتهم من مجرد معارف إلى أشقاء يمثلون مقولة الواحد للجميع والجميع للواحد.

توقفوا عندما صوبت الشمس أشعتها الحارقة بشكل عمودي إلى الأرض، حيث رأف السائق بالمركبة قائلا: يجدر بنا أن نريحها قليلا، وتوزّع الرجال في لمح البصر يهيئون وجبة غدائهم، هذا يجمع الحطب، وذاك يشعل النار، والآخر يبحث عن عدة الشاي، بينما تولى غيره عجن الخبز، تاركين للسائق مهمة الاعتناء بالعربة. بعد أن أكلوا وصلّوا الظهر، قرروا تناول الشاي من جديد، أعده مُلايْ هذه المرة، إذ قرّب الطبلة من الأكبر سناً في الجماعة، وهو وقور الهيئة ناهز الخمسين من العمر، كان يقوم بوظيفة الدليل إضافة إلى مهامه العسكرية الأخرى، فقال له: لم لا تحدثنا عن بعض ذكرياتك في هذه الأرض التي يبدو أنك تعرفها كما تعرف راحة يديك؟ تلكأ الرجل قليلاً، ثم ابتسم وقال لملايْ، أنت دائما تورطني يا صديقي الشاب، مثل تلك الأحاديث لا يصلح إلا بالليل، لكن مُلايْ أصر قائلا: صحيح لا تحلو المسامرة إلا في الليل، لكنني أريد شيئا خاصاً عن هذه الأماكن، أريد التعرف في وضح النهار على بعض ما تحمل في طياتها من أسرار الناس ومن ماضيهم. ابتسم الخمسيني، كأنما تذكر شيئا بعينه، وقال هكذا إذنْ، وسكت قليلا، ثم أردف:

- لا شيء مهم يحضرني الآن، أنا من جيل كانت أحلامه بسيطة وجميلة ... كانت أحلامنا ثلاثية الأبعاد، بُعد الصحراء المترامية الأطراف، وبُعد السماء الصافية الزرقاء التي لا يحجبها شيء سوى تلك السحب الموسمية التي ترسم لوحات فنية تشد الأنظار إليها كعنصر مستجد في المشهد المألوف، وبعدٌ ثالث يرتطم بموج المحيط الأطلسي فيبلّل تلك الأحلام لتصبح ندية طرية مما يجعلنا نتيه من الخيلاء لدرجة أنه يتراءى للواحد منا أنه هو محور الكون الذي تدور حوله الحياة برمتها. أما ما طلبتَ يا مُلايْ، فهذا الوادي يذكرني بحادث أليمٍ فقدت فيه واحداً من أعزّ أصدقائي، إنه الحسين رحمه الله، كنا نقوم بحملة لوسم بعض صغار الإبل، وكان هو من أمهرنا في ذلك، فاختار واحداً من أقواها كنا نسميه "الديخن"، وفيما كان يحاول تثبيته، جرب إحدى الخدع المشهورة وهي تتمثل في القفز على سنام البعير لإجباره على التوقف، لكنه لسوء الحظ لم يحسن تقدير

المسافة فتجاوز البعير وسقط أمامه فرفسه برجليه الأماميتين فدق عنقه وكانت ضربة قاضية، حيث انفجر الدم يتدفق من فمه ومنخريه وفارق الحياة قبل أن ندركه، ليتحول يومنا إلى مأتم لم أشهد مثله، ومما زاد من ألم الكل هو أن الحسين كان حديث الزواج، وعلمت فيما بعد أن زوجته لم تتجاوز فاجعتها إلا بعد أن امتلأ جيدها بالتعاويذ والتمائم.

. أنا آسف على ما أثرت لديك من ذكريات أليمة، اعتذر مُلايْ.

. لا بأس عليك، لقد مر على ذلك ما يزيد على الثلاثين عاما. قال الكهل.

. وزوجة صديقك ماذا حل بها بعد ذلك، هل تماثلت للشفاء؟ هل رأيتها بعد ذلك؟ سأل آخر كان شديد التأثر بالذي سمع.

. علمت أنها كانت حاملا، وأنها أنجبت ولداً ذكراً، أسمته باسم أبيه الحسين، ردّ الكهل.

. مسكينة، قال الشاب، إنها حالة محزنة، يُرثى لها.

. لا، رد الكهل باسماً: لا تخش عليها هي من ثمار هذه الأرض الصلبة التي لا تهزها النّوازِل، ومن اللواتي عرفن استخراج القوة من مكامن الضعف بما ورثن عن أمّهات أرضعنهن انتزاع المكانة بالتصدي لثالوث الحياة: الطبيعة القاسية، مساوئ المجتمع الذكوري، وشظف العيش.

. تباً للإبل ووسْمها، لما ذا تكلفون أنفسكم كل تلك المعاناة؟ لما ذا تَسِمونها؟ سأل شاب من المجموعة كان يستند بظهره إلى جذع الشجرة التي يستظلون بفيئها.

ابتسم الكهل بهدوء وهو ينظر إلى الشاب الذي كثيرا ما رآه يقرأ كتبا باللغة الإسبانية، وردّ بنبرة هادئة إنما حازمة: تلك هُويّتنا.



أثار جوابه شيئاً من التعجب والسخرية عند الشاب الذي سأل، ولَحِظَ الكهل ذلك، لكنه لم يبال، وإنما تابع يقول: القرآن يأمرنا بالتفكر والتأمل في خلق الإبل؟ وأنا أدعوك إلى النظر كيف وسمت؟

كان السؤال استفزازيا إلى حد ما، لأنه يلمح إلى العلامات التي تسم بها القبائل ممتلكاتها، والقبلية في عهد الثورة باتت منبوذة وتعتبر من علامات التفرقة، وقد أدرك المتكلم امتعاض جلسائه، فابتسم قائلا: لا تذهبوا في المنحى السلبي للكلام، فقط أجبني أنت . يقصد الذي سأله . هل تعرف لماذا يسم غالبية الصحراويين إبلهم بحروف عربية؟ أو بأشكال مشتقة منها، ومن اليمين فقط؟

. فرد الشاب في تعجرف: نعم، إنهم بذلك يميزون ممتلكاتهم حتى يبعدون الفتن والخصومات بين القبائل التي كثيرا ما تناحرت بسبب بعير أو ناقة، أو بئر ماء.

. هذا في ظاهر الأمر، قال الكهل، لكن الأعمق من ذلك يتجاوز الفوارق القبلية، لأنه في الجوهر دليل اشتراك في شيء عام، إنه نوع من بطاقة التعريف، ألم يقل أجدادنا قديما إن رقاب الإبل تنبئ عن أهلها؟ فبما

ذا تنبئ إبل الصحراء اليوم؟ ألا تخبر القاصي والداني بهوية أصيلة معلنة غير قابلة للطمس ولا للإضغام تنضح بها الأسماء والأرض والممتلكات؟ نعم قد يميز بعضنا إبله من إبل غيره، لكن الآخر، الأجنبي ماذا سيرى فيها؟

ساد صمت كبير لم يبدده سوى آمر الجماعة بقوله، أظن أنه حان وقت رحيلنا يا جماعة.

قاربت الشمسُ المغيبَ، وانتبهت منّة إلى أنه عليها الذهاب إلى المهرجان الخطابي المسائي الذي دأبت الهيئة الصحية على تنظيمه في ذلك المخيم لتثقيف السكان حول طرق الوقاية من الأمراض والأوبئة في ظرف شحت فيه وسائل العلاج، فانطلقت مسرعة بعد أن لملمت أغراض بيتها المتواضع جداً، وهكذا تلقفتها حياتها المهنية والعائلية طيلة الأشهر الستة اللاحقة دون أن تترك لها فرصة التفكير في أي شيء، لم يغب شقيقها مُلايْ عن ناظريها ولو للحظة، لكنها كانت تتخذ من ألمها زادا لشحذ العزائم واستنهاض همم كل من حولها لخوض لجاج بحر حياة تتقاذفها أمواجه بكل صنوفها وصروفها، فكانت تكتب لشقيقها كلما وجدت من تبعث معه رسائل تصف فيها معاناتها ومعاناة سكان المخيم من حولها، أخبرته ذات مرة أن زوجها انتقل إلى العمل في مخيم آخر غير الذي تسكن هي فيه، وبرّرت ذلك بضرورات العمل، وأنها الآن تستقبل لديها بعض الفتيات ممن لم تتمكن عائلاتهن من الالتحاق بالمخيمات بعد، أو ممن نكب ذووهن في رحلة الشتاء القسرية، وأنها كلما رأت شابة جميلة تتذكره، وتتمنى لو أنها كانت زوجته، وختمت الرسالة معتذرة: سامحني يا عزيزي، فقد كتبتُ الرسالة على ضوء قنديل زيت، لأنني مازلت لا أملك صامبوجة (مصباح غازي) حتى الآن، وسترى أنني اكتفيت بطي الورقة على شكل ثلاثي إذ لم أجد مغلفاً أضعها فيه، ولتعلم أنني غير راضية عنك يا مُلايْ، فقد علمتُ من الرجل الذي جاءني في المستوصف لينقُلَ إليّ أخبارك، أن قيادة الجيش عرضت عليكم أخذ رخص (إجازات) قصيرة لزيارة المخيمات، لكنك رفضتَ ذلك، واقترحتَ أن يتم تقديم من لهم أزواج أو أبناء أو آباء وأمهات...الخ، لا أدري متى ستصلك الرسالة، لكن إذا كنت لا تبالي فارحم شوقي ولهفتي عليك، فأنا أكبر منك، بل أنا أحل محل أمنا حتى نعود إليها. أخرجت الرسالة من جيب سترتها الطبية لتتأملها في نهاية دوامها الليلي وهي توشك أن تعود إلى بيتها وابنتها شروق قبل أن تقف قرب ما يشبه خزانة الدواء في المجمع الصغير الذي بني على أساس أنه دار حضانة لأطفال الأمهات العاملات لكنه تحول فجأة إلى مركز استقبال وعلاج للأطفال بعد انتشار نوع من الإسهال بسبب سوء التغذية والتشريد وتدفق اللاجئين بالعشرات. أعادت الرسالة إلى جيبها بعد ان تأكدت من أنها دونت عنوان شقيقها في انتظار ان ياتي المقاتل رفيق شقيقها الذي وعدها بأنه سيمر لأخذها.

– ما ذا تفعلين يا منّة؟ سألت سعادو.

. لا شيء، أجابت منّة، ثم واصلت: خرجتُ قبل نصف ساعة، وكنتُ منهكة جدا ومتضايقة من رؤية هذه الأرواح البريئة وهي تقضي يوميا بالعشرات، وحين جاء البديل الذي يستلم مكاني في العمل، لم تكن

لدي رغبة في الكلام أو الأكل أو حتى النوم، فتمشيت قليلا ثم جلست هنا أنظر إلى القمر، وأنتظر ذلك المقاتل الذي سأبعث معه رسالة لملايْ.

ـ تنظرين إلى القمر؟ تراك تحاولين الهروب من عذابات الأرض بالتعلق بالسماء، أم ماذا؟ سألتها سعادو .

ـ لا يا سعادو، لست من ذلك النوع الذي يهرب، أنا أُفَضّلُ المواجهة، بدءاً بمواجهة نفسي ومخاوفي الذاتية، وما أسميته عذابات الأرض إذا كنت تقصدين مأساتنا وما نحن فيه الآن، فهذا ثمنُ رفاهيةٍ سَعَيْنَا إلى تحقيقها، وهي باهظة الثمن كما تعلمين، أما النظر إلى القمر فتلك عادة ألِفْتُها منذ صغري، لأنه طالما بهرني بنوره الساطع الهادئ، وقد أعادني إلى ذكريات بعيدة جدا في الزمان والمكان معاً، ولا أخفي عليك أنه أزاح عن نفسي الاكتئاب، وها أنا الآن أشعر بالجوع ويكاد يغلبني النعاس.

ـ أنت محظوظة يا منّة، قالت سعادو، وأنا أحسدك على أريحيتك وبساطتك، تنظرين إلى القمر وتجدين فيه مُرفّهاً ومُعزّياً عما نحن فيه، ثم تذهبين بعد جلستك الفضائية هذه وتهدهدين ابنتك ثم تنامين بهدوء، أنا لا أستطيع ذلك، منذ أن عملت في قطاع الصحة، وبدأت أعالج المرضى وخاصة الأطفال، بت لا أعرف إلى النوم طريقاً، وكلما حاولت استراق غفوة مهما كانت قصيرة، يتراءى لي وجه طفل شاحب أو أم مولولة، أو أب حزين، لأقفز من الفراش صارخة مذعورة حتى سئمت رفيقات السكن مني.

ـ مع من تسكنين يا سعادو؟ سألتها منّة، أليس مع أبويك؟

ـ لا، أجابت سعادو بنبرة حزن، قصتي طويلة.. يا منّة، قد أرويها لك لا حقاً، لكن الآن عليك أن تذهبي إلى بيتك فشروق الصغيرة تنتظرك.

ـ أنا متعبة فعلا، ردت منّة، لكن ذلك لا يمنعني من البقاء معك لبعض الوقت، كما أنني فضولية وأريد سماع قصتك.

ـ طيب، عليّ أولاً أن ألقي نظرة على غرفة المرضى، وأسأل الأمهات إن كن يحتجنني في شيء، ثم أعود إليك، وقد أجد خبزاً أو بعض المعلبات أو شيئاً تسدين به رمقك، فانتظريني هناك في ظل ذلك الحائط، فالتعرض لأشعة القمر لمدة طويلة يؤثر على بشرة الوجه.

فكرت منّة في صديقتها التي التهمتها بوابة المستوصف الطبي ومدخله المظلم، وتساءلت في نفسها: من أين تأتين يا سعادو وما هي قصتك؟ ثم أطلقت زفرة من عمق صدرها لتقول: هي جزء من أشلاء قصتنا جميعاً، رَفَسَنَا الدهر بأرجله الغادرة فتناثر حطامُنا متطايراً ليحط الرحال مبعثرا هنا في لَحْماده .. لكن لا بأس ها نحن قد بدأنا بجمع شتاته، رُغم البرد، والجوع ، والقمل والأمراض الفتّاكة. نبهها صوت سيارة توقفت أمام المستوصف، وحين حاولت تبين ما يجري، كانت سعادو واقفة عند رأسها تقول:

. ها أنا عدت، ولاحظت منّة أن بيدها أوراقاً من شيء يشبه الجريدة قرأت على إحدى صفحاتها غير المتصلة عنواناً خُطّ بلون أسود بارز: **{رأي الجماهير}**، أفردتها لتستخرج منها رغيف خبز فيما راحت تقول: قضى ثمانية من الأطفال الآن، وقد تركت الطبيب سلامة يتهيأ لدفنهم، والحالة تزداد سوءاً، لذا لن أستطيع المكوث معك كثيرا لأنني سأرافق مساعد الطبيب مع مجموعة أخرى من الأطفال إلى مستشفى تندوف عسى أن يستطيع إخوتنا الجزائريون إنقاذ بعضهم، لا بد أنك رأيت سيارة الإسعاف الجزائرية التي توقفت قبل قليل؟ خذي يا منّة.

وجمت منّة وعادت بتفكيرها إلى تساؤلاتها، لكن هذه المرة في صمت يطبق على أنفاسها، وإحساس يثير في داخلها الغيظ والحنق الممزوج بمشاعر الضعف والكره التي تصطدم مع الكبرياء وعزة النفس وعدم التسليم أو الاستسلام للأمر الواقع، لأن الحد الفاصل بين التحمل والانهيار رفيع جدا، خاصة عندما يكون ذلك الفاصل ممتلئاً بجثث صغيرة بريئة تبدو للناظر أنها نائمة بوداعة بينما حقيقة أمرها أنها هامدة في سكون أبدي لا ينتظر بعده إلا فراغ يعجز الزمن عن طيه.

سمعت همهمة كلام تبتعد وتقترب منها جيئة وذهاباً، مما أثار فضولها، فاقتربت أكثر من باب المستوصف وبالخصوص من سيارة الإسعاف الجزائرية، كانت تلك المرة الأولى التي تشاهد فيها جزائريا على هذا القرب، رأت ممرضة ببذلة بيضاء، وبجانبها رجل ربعُ القامة بدا وكأنه يملي عليها بعض الإرشادات، ثم رأت الممرضة تفتح الباب الخلفي للسيارة وتخرج منها أكياسا، وتضعها على الأرض، تقدمت منّة نحوها، وحيتها قائلة السلام عليكم، فردت الممرضة الجزائرية وعليكم السلام، كان وقع كلامها جديداً على أذني منّة، خاصة بعد أن قالت الجزائرية: مرحبا بك، وفخمت راء الترحيب على غير صيغة نطقها بالحسّانية، ثم تساءلت منّة في نفسها، كيف ترحب بي وهي الضيفة، لكنها استدركت الموقف ومدت يدها لتصافح ضيفتها المضيفة، وفي نفس الوقت تتسلم منها كيسا من الأدوية.

لم تتسنّ لهما فرصة الحديث في أي شيء غير الانتباه للتعليمات المتعلقة بحفظ الأدوية وطرق استعمالها، حتى أفرغا ما كان في سيارة الإسعاف، هنا تقدمت منّة لتعبر عن عرفانها وشكرها لشقيقتها حليمة الجزائرية، كما عرّفت الأخرى عن نفسها بعد الانتهاء من إفراغ حمولة السيارة.

ابتعدت منّة وهي تفكر متجاوزة الأسماء والوظائف إلى ما هو أبعد من ذلك، محاولة استجماع أنفاسها وشتات قوتها الذي تبعثر بين ما كانت تفكر به قبل مجيء سيارة الإسعاف، وما ألحت إليه سعادو حول حياتها، ابتسمت وهي تهز منكبيها، كأنما تريد إقناع نفسها بشيء معين، أو لتتساءل: هل كان لهذه الليلة أن تتحمل كل ما جرى لولا أنها تأتي في هذا الزمن الشارد أو الخارج عن مدار الحكمة والمنطق؟؟

أخذ مُلايْ الرسالة من رفيق له قدِم من مقر قيادة الناحية، أعطاها له في حين كان يتأهب للذهاب في مهمة إلى وحدة عسكرية مجاورة، فقرأ ما كُتِبَ على ظهر الورقة المطوية على شكل مثلث: إلى أخي مُلايْ ولد الصالح، وأسفل ذلك: الشمال رقم 16، وعلى الجهة الأخرى: من أختك منّة بنت الصالح في مخيم النصر . المستوصف الطبي.

لم يستطِعْ كبحَ رغبة الإطلاع على محتوى الرسالة، خاصة وأن منّة لم تراسله منذ ستة أشهر. بدأ يفك طياتها بهدوء كأنما كان يخشى إتلاف الورقة قبل معرفة ما فيها. قرأها في نهم ظاهر، تبسم إذ وصل إلى فقرة تمنيات الزواج، واكفهرّ وجهه عند أخرى تقول فيها شقيقته إن زوجها اضطر للابتعاد عنها، واغرورقت عيناه لما وصل إلى احتجاجها واعتراضها على تخلفه خاصة لما تذكر أنها بالفعل تمتلك حنان ودفء الأم، أعاد طيّها ووضعها في جيبه، وركب سيارته العسكرية نحو مقصده.

في الطريق فكّر، كم مضى على لقائي بمنّة؟ ثمانية أشهر!! كيف يمضي الوقت مسرعا، واصل سيره متعرجا بالسيارة بين شجيرات الطلح والفرسيك، محاولا أن لا يثير الغبار حتى لا يتسبب في انكشاف موقع الوحدة العسكرية التي يتوجه نحوها، يسير أحيانا في منتصف الوادي مستعينا برماله اللينة على ذلك، ومتجنبا آثار السيارات قبله حتى وصل إلى مقر الوحدة 25، أدخل السيارة تحت شجرة طلح كبيرة تحميها من استطلاع العدو الجوي، وتوجه إلى زميل كان ينتظره أمام مقر ضيافة الوحدة، تصافحا وسلما على بعضهما، وتكاتفا دخولاً وهما يتبادلان أطراف الحديث حول آخر مستجدات الوضع القتالي، بعد الجلوس وتناول كوب شاي أخضر، أخبر مُلايْ مضيفه الذي كانت تربطه به علاقة حميمة بأنه تسلم رسالة من شقيقته في المخيمات، وأن بعض ما جاء في الرسالة يعكر مزاجه، وأخرج الرسالة من جيبه وناوله إياها.

. هذا جيد... ما تزال منّة مصرة على تزويجك حتى ولو كان ذلك غيابياً، علّق الصديق.

ـ كنت أعلم يا موسى أن ما سيثير اهتمامك هو مسألة الزواج دون بقية محتوى الرسالة، رد مُلايْ، ليستطرد: ألم تقرأ أنها كتبتها على ضوء قنديل زيت، وأنها بلا زوج، دعك من المزاح وقل لي ما ذا كان سيحصل لو لم تكن النساء هناك في المخيمات؟ وأشار بيده إلى جهة الشرق.

. ذلك احتمال لم أفكر به أبداً يا مُلايْ، قال موسى، لكن ما دمت سألتني، أقول لك: كنا سنحظى براحة بال أكثر، أنظر إلى نفسك الآن، هل تفكر في القتال؟ لا، أنت تفكر في أختك، وكم من واحد هنا يشغله ما يشغلك؟ لا يفكر إلا في أخته مثلك، أو في زوجته، أو في أمه... الخ، المهم يفكر في امرأة ما..

. وأنت، رد مُلايْ بحنق، هل قُدّ قلبك من حجر؟ أليست لك أي واحدة منهن؟ لا أم ولا أخت ولا زوجة؟ أنت رجل أتى من فراغ وسيعيش فيه مدى الحياة.

لم يكن حديثا موفقا ذاك الذي تبادله مُلايْ مع زميله موسى، كان يظن أن بينهما تشابهاً في الكثير من خصال الرجولة مثل الإقدام في المعركة، والجَلَد والقدرة على التحمل، وعدم الاكتراث بالصعاب، لكن الرسالة جعلته يكتشف أن الإنسان أكثر تعقيدا مما يظن، ورغم اعتذار مضيفه عما بدر منه من كلام، فكر مُلايْ متسائلا: أيعقل أننا خطّان متوازيان؟ لكنه أسرّ الأمر في نفسه وغيّر مجرى الحديث نحو الحياة اليومية للمقاتلين وما تعرفه من تنام للأنشطة الثقافية والتعليمية بالتوازي مع تطور الحرب ودخولها في مراحل جد متقدمة ومتطورة نوعياً.

عاد في المساء إلى وحدته، وانزوى منفردا في حضن شجرة فرسيك هرمة، وابتسم لما همّ بالجلوس إلى ما اجتمع حولها من رمال ذهبية نظيفة، فناجاها قائلاً: يبدو أنك الأنثى الوحيدة هنا، وأرجو أن تتحملي جلوسي بقربك، وأن تساعديني في كتابة رد يناسب ما جاء في رسالة أختي منّة، أنا أتشوق فعلا لرؤيتها، ولاحتضان ابنتها الصغيرة شروق، نعم شروق اسم غريب على أسمائنا، لكن منّة تفاءلت بميلاد ابنتها واعتبرته شروق عهد جديد بالنسبة لعائلتها الصغيرة، تلك هي منّة، لها حنان الأم، وحصافة الجدة، وحزم الأب، وعناد الصحراء، تريدني أن أتزوج، وبادرت بمفاتحة إحداهن في الأمر. تعلمين يا صديقتي الفرسيكة!! يروقني ما تفكر فيه منّة، لكنني لست على عجلة من أمري لا بد لي من التريث لاختيار من تناسبني فعلا، وقبل كل شيء، أريد زواجا يحقق لي حاجتين: حباً متبادلاً، مع امرأة قادرة ليس على الأخذ فقط، وإنما على العطاء كذلك.

أتمنى أن لا تفكري مثل ما يفكر صديقي موسى، ولكنك تعرفينه، نعم، ذلك الأسمر النحيف صاحب العينين الجاحظتين، سبق أن أخبرتك أنه تزوج وطلق مرتين، وينوي أن يتزوج من جديد، لماذا؟ لا أدري، ولكنني سألته مرة ولم يكن جوابه مقنعاً، لأني وجدت فيه نوعا من المراوغة، كمن يريد إخفاء شيء، لأنه قال لي: لماذا تسأل يا مُلايْ؟ وكأننا لا نأتي من نفس المكان؟ أنا مثل العصفور الذي اشترطت عليه حماته أن يأتيها بعود غير مستقيم وغير معوّجٍ، وما زلت أبحث عنه، فقلت له، يبدو لي أنك تهرب من شيء يا موسى، فرد عليّ: نعم، أنا أهرب من مجهول إلى مجهول، أنا أُطلّق ماض من العوز والحاجة والفقر، وأنطلق نحو الأفق الرحب الذي نبني أسسه الآن، فسألته: وهل المستقبل الذي تتحدث عنه لا يعني لك إلا تغيير فراش النوم، أو سماع زغرودة القران؟ كنت أظن أن الأمر أعمق بكثير مما تفضلت به يا صديقي، أتدرين بماذا أجابني؟ قال: الحياة تغيير مستمر، ونحن في مرحلة تحول جذري، ولن أكون من المتأخرين. لم أجد ما أقوله له، صدقيني، لأنني وجدت في عبارة طلاق الماضي أكثر من معنى، وتساءلت إن كان يدرك ما يقول؟ وإن كان يقصد طلاقا أفقياً أو عمودياً؟ وأنتِ ما رأيكِ يا جميلتي؟ لأنك حتى وإن كنت شجرة فإن لك من الحق مثل ما لي أنا أو لموسى في هذه الأرض ومجتمعها، بل ربما أكثر لأنكِ أكبر منا سناً ولكِ علينا حق الاحترام والتقديم. من جهتي لا أمانع في أن نسعى لتحقيق الأفضل، أنت تعرفين أنه مع إيماني بأن لكل طائر الحق في أن يغرد في أي روضة

يشاء، وباللحن الذي يختار، لكنني لا أرتضي النشاز، ثم أمسك غصناً من شجرة الفرسيك، وسألها: هل توافقيني الرأي؟

باشر في انتقاء عبارات ديباجة جوابية جاعلا من حياته اليومية ومشاهداته صلب محتوى رسالته، متجنبا أي ذكر للحرب والقتال، ثم أخبرها أنه قرأ رسالتها بشغف كبير، وأنه يقبل كل ما فيها من عتاب، ليتوقف عند مسألة الزواج متردداً حول الجواب المناسب لما تقترحه أخته، والتفت إلى الفرسيكة يسألها وماذا سنقول لمنّة في هذا الخصوص؟ حسناً، سأقول لها إنني موافق من حيث المبدأ شرط أن تتريث حتى لا تلزمني بوعد قد لا أفي به، وأنهى ممازحاً بالقول: أنا أفضل منكِ لأنني كتبتُ الرسالة في وضح النهار على ضوء شمس الساقية الحمراء الجميلة، وعند شجرة فرسيك لطيفة ساعدتني كثيرا في استحضار عبارات الرسالة.

تدرجت حياة المخيمات من مستوى إلى آخر أعلى وتشعبت تنظيماتها ومتطلبات الحياة فيها، مرورا بحياة ترحال من مكان إلى آخر، ومن التقارب إلى التباعد ومن التبعثر إلى التجمع، وتبودلت الأسماء والمسيّرون، بل وحتى عادات الأكل إذ قررت هيئات التغذية سن برنامج تغذية يملي تناول المواد الثقيلة مثل العدس والفاصوليا الجافة في وجبات الغداء، بينما تترك الخفيفة مثل الأرز والشعيرية وغيرها للعَشاء، كما تسللت الثقافة ممتطية حملات محو الأمية إلى زوايا كان يعتمها الجهل، تهاوت مفاهيم وعلاقات وبنى اجتماعية كانت في مصاف التقديس، لتترك مكانها للأقوى والأصلح الذي زحف مكتسحا كل مناحي الحياة، حيث كل شيء بات قابلا للمراجعة.

كان بركاناً أو زلزالاً هدّ الأسماء والرموز والمسميات الأجنبية في الإدارة وفي التسيير اليومي لحياة الناس، لِيُحلّ محلها قاموساً عربياً فصيحاً للهياكل والبنى الاجتماعية والتنظيم، وأيقظ مُثُلاً كادت تغدو نسيا منسيا، فأصبح المقاتل الشجاع ينعت بابن علي، والموقف الشهم يوصف بأنه هاشمي، تبدلت أسماء كانت مغرقة في محليتها، وأفسحت المجال لأخرى أكثر انتشاراً، كسهام، ومنى، ووردة، وبرزت أخرى أنجبتها ظروف أو أحداث سياسية بالذات كفلسطين، وفيتنام، والليبية، وسوريا، أو بومدين، والهوّاري ...الخ، لحظات توحي بأن الأرض قد تميد بمن عليها أو أنها تسير بوتيرة أسرع مما تقول كتب الجغرافيا وعلم الفلك في أحسن تقدير. انتقال بالقفز المتلاحق، القبيلة ردة، والعنصرية خيانة، والجبن عار، والجهل مذلة. مشهد يعبّر عنه مثلٌ محليٌّ جداً يقول: "هذا رَكْ لَنتاجْ" أي نحن هنا في سهل الأنداد، القيمة من العمل والرفعة من العطاء، والمناصب من خليطهما.

تنقلت منّة بين المسؤوليات والمهام من ممرضة في مستوصف طبي بمخيم النصر الذي أصبح يُعرف فيما بعد بمخيم بوكراع (نسبة إلى البلدة المنجمية في أرض الوطن)، إلى موظفة في قسم التمريض العام بالولاية، ثم بعد ذلك مديرة شؤون الممرضات في المستشفى الوطني الذي بُنيّ بالحملات الشعبية، ومن خلال عملها فيه

أسست شبكة علاقات إنسانية امتدت من كوبا حتى ألمانيا مرورا بإسبانيا، والنمسا، وفرنسا، وإيطاليا، أما على مستوى البيت فقد توسعت عائلتها بعد شروق بثلاثة أطفال هم: علي الذي بات يؤمُّ الصف الثاني من المدرسة الابتدائية، وشقيقاه القذافي والجمهورية اللذان تأخذهما المربية أميمة يوميا من ساحة المخيم لتوصلهما إلى دار الحضانة التي تشغل جزءا من إدارة المخيم المقامة على شكل دائري لتفادي تكدس الرمال الزاحفة من كل الاتجاهات.

استمر مُلايْ يقاوم فكرة الزواج متصدياً لما يسببه ذلك من حسرة لشقيقته التي كلما فاتحته في الأمر تهرب، وإذا ضغطت عليه يقول لها سيكون ذلك في رخصتي (إجازتي) القادمة إن شاء الله، ويحول الحديث إلى مشاهداته هناك، مرة يصف الأماكن وأخرى يعجب من كبر مساحة الأرض، ويتنقل من حديث إلى آخر بمهارة المقاتل الخبير في المناورة، حدثها مرة أنه بعد انتقاله إلى جبهة الجنوب تعرّف على أرض لم يسبق له رؤيتها، رُغم أنه سمع عنها الكثير، إنها تيرس قال مؤكداً، أرض مترامية الأطراف، تتخللها جبال سود، كل واحد منها يحمل اسماً خاصاً به، وقد يغضب إن أسميته بغير اسمه، وأنه لم يكن يعلم أن مدينة آوسرد هي حاضرة منطقة تيرس بل وقلبها النابض التي عرفت منذ القدم باسم "حلة تيرس"، والحلة هنا لا تعني الملبس وإنما حلة من محل أو محلة، قال موضحاً لأخته.

ـ يبدو أن تيرس أخذت موقع الاستحسان من نفسك؟ قالت منّة.

ـ لا أدري، لكن فيها شيئا خاصاً، قال مُلايْ، حين دخلتها أول مرة لم يكن الموسم بذلك الجفاف الذي يُعسّر حياة الناس لدرجة مطاردة أماكن الكلأ في حل وترحال متواصلين يضنيان المطايا ويعطلا كل أشكال الحياة الاجتماعية الأخرى، كما أنه لم تكن بذلك الرخاء الذي يبعد التوجس والخوف، كان شيئا من هذا وذاك.

ـ كيف؟سألت منّة.

ـ هطلت الأمطار في فصلها المعهود ـ أجاب مُلاي ْـ وكان لذلك انعكاس على الأحوال المناخية إذ يكون النهار رغم حرارته المرتفعة نسبياً هادئاً وصافياً يفسح المجال لرؤية بعيدة المدى تُمَكّنُ الناظر من التحليق بجناحي بصره حتى يلامس تلك الحدود التي لا تنتهي إلا عند خط تماس السماء والأرض، وحين يجيء الليل رغم ظلامه الدامس فإن له بهجته الخاصة إذ تتخلله نسماتُ هواءٍ رطبٍ تزيل لفح النهار، ويرخي سدول حلكة براقة تخترقها أشعة نجوم تتوهج في عليائها متألقة بعيدة وقريبة في نفس الوقت، تثير مشاعر مختلفة لدى من تلامسهم حسب اختلاف مواقع النجوم أو ربما اختلاف نوازع النفوس البشرية في تفاعلها وتأثرها بذلك، وقد يكون الليل مقمراً ينيره بدر له صورة قرص نحاسي لمّاع تتدرج إضاءته تصاعدا مع تقدمه في السن ثم يبدأ في الأفول تنازلا كأنه يتعمد التأكيد على أنه ما بعد التمام إلا النقصان.

. وصف بديع يدل على أنك تمتلك أحاسيس مرهفة يا شقيقي، وهذا جميل لأنه يؤكد أن الحرب لم تحولك إلى آلة صماء، هل تدرك يا مُلايْ أن هذه الصورة التي رسمتها الآن عن تيرس إنما هي اختزال لصيرورة الحياة نفسها، ظرف زمانٍ يغري الأطفال بالسهر في مطلعه، ويشجع الشباب على اللعب والمرح خارج الحي والمضارب في منتصف دروته ثم تراه يتجه صوب الانتهاء بمشاهدة تجهد المسنين وعباداتهم المتأخرة.

ـ إنما هي مشاعرك التي انسجمت مع الصورة، وجعلتك تبحثين لها عن مثل هذا المعنى العميق التي أشرت إليه الآن يا منّة. أجابها.

ضحكت منّة، وردت عليه قائلة: أتُراكَ نسيت أن صديقك الجريح سيتزوج الليلة، وقد وعدته بالمجيء.

. يا إلهي، رد مُلايْ مستنفراً، والله ما انتبهت أن اليوم هو يوم فرحه، سأذهب إليه الآن، هل ستأتين؟ سألها.

ـ لا، تعلم أن أحمد ـ قصدت زوجها ـ غائب، وهذا يمنعني من التبرج و الزينة أو التواجد في الحفلات التي يكثر فيها الرجال، قد أذهب غداً لتهنئة العروس. ردت منّة.

خرج مُلايْ وحده متجها إلى الخيمة التي نصبت للاحتفال بعرس صديقه الجريح، بعد أن صلى المغرب في بيت شقيقته، كان الظلام شديداً، مما أجبره على التوقف لبرهة حتى تتعود عيناه على ذلك، وليتذكر أماكن الأوتاد التي تُثَبِّتُ الخيام حتى لا يصطدم بها، تقدم رويدا رويدا حتى خرج إلى شارع مستقيم بين الخيم عرف أنه يوصله مباشرة إلى خيمة العرس فأسرع الخطى دون تردد، وقبل أن يدخل، لاحظ وجود جمع من الأطفال يحومون حول الخيمة، وشباب يدخلون ويخرجون ثم رأى سيارة عسكرية مكشوفة، تقف على مقربة من المكان وحين سأل عنها أخبروه أن مجموعة من جرحى الحرب علموا بزواج صديقهم فأتوا مباركين، من باب الخيمة رأى حشدا تزاحم في الداخل تتوسطه نساء بين أيديهن طبل يصفقن على نقراته وينشدن أغنية مطلعها:

دويلة جارتي      باطماعك فيّ

توقف مُلايْ حتى حدد مكان جلوس العريس، حين رآه مرتدياً كندورة دخناء على غير ما هو مألوف في ذلك النوع من المناسبات، لكنه فكّر في المثل القائل: "العيد على عامه"، وشق طريقه صوبه بين الزحام محييا هنا وهناك بعض المعارف من الرجال والنساء حتى وصل إليه وانحنى يهنئه ضاحكاً، سبقتنا يا رجل.

أفسحوا له مكاناً للجلوس، وقدمت له امرأة طويلة القامة نحيفة الجسد كوب شاي أخضر وقارورة عطرٍ رش منها على لثامه الأخضر، وردها لها، ثم التفت إلى العريس يسأله من هي هذه المضيفة الطويلة القامة؟ ؟فرد عليه، إنها من قيادة لجنة الشؤون الاجتماعية، لماذا تسأل عنها؟ لا لشيء قال مُلايْ، فقط لفت انتباهي طول قامتها ونحولها.

تواصلت سهرة الفرح حتى الثلث الأخير من الليل، وكان مُلايْ يتفحص الوجوه التي تقترب وتبتعد ليس بسبب حركتها وإنما لضعف الإضاءة، فأحيانا يراها وجوهاً بشرية تحمل ما قد يتصور الناظر من فرح أو هموم، وأحيانا تتراءى له كأشباح لا يستطيع تمييز القسمات ولا المشاعر البادية عليها، لكن لم يفته بين الحين والآخر ملاحظة ابتسامة عذبة أو عيونٍ نفاذة، بل وحتى أصوات تؤكد إمكانية سبق الأذن للعين في الانجذاب، أغان وأحاديث تتطور أحيانا إلى نقاش ساخن حول قضية من قضايا المجتمع اليومية، كضرورة التناسل والتكاثر، بين من يرى أن الطريق إلى ذلك يستوجب إقرار تعدد الزوجات، ويرد آخر، أن لا داعي لإقرار ما هو موجود أصلا في الشريعة الإسلامية، لكن المهم هو أن يقتنع المجتمع به ويتقبله.

. لقد جئت متأخرا يا موسى، ما الذي أخرك حتى الآن؟ استفسر مُلايْ من صديقه العسكري.

. بل أنت الذي تأخرت، رد موسى، لأنني رأيتك حين دخلت.

. أين كنت؟ سأله مُلايْ.

. قد لا يعجبك الجواب، فلماذا تسأل؟ رد موسى.

. أنت مريض ولا أملَ في شفائك، قال مُلايْ،، بل يلزمك أن ترقي نفسك بالقرآن.

ـ ألم تسمع ما قال المتدخل قبل قليل؟ سأل موسى، ألم يقل أنه لا بد من تعدد الزوجات لإكثار المجتمع؟

أنهت وليمة العشاء حوار الصديقين، ثم مقدم العروس التي جاءت صحبة خالة لها مرتدية ملحفة سوداء من قماش يعرف محليا باسم "توبيت"، أجلستها صديقاتها بالقرب من العريس، الذي التفت إليهن والبسمة تملأ وجهه، وبدأت الضوضاء تخفت شيئا فشيئا والحشد يتناقص حتى جاء دور مُلايْ الذي خرج عائداً إلى بيت شقيقته قبل صلاة الفجر بقليل، وظل فيما هو يمشي يحاول جمع ما أثار اهتمامه من الأحاديث التي دارت في تلك الليلة، تذكر كيف تساءلت إحداهن عن أساس الأسرة الصحراوية، وانتظام الجلسة في شكل دائري، مما أتاح رؤية وجوه معظم الجالسين والجالسات قرب المصابيح الغازية، ثم كيف كان رد شاب منفعل وهو يقول: ألم يحدد الدستور أن الأسرة أساس المجتمع قوامها الدين والأخلاق؟ لتجيبه امرأة أخرى كأنما أرادت نصرة أختها قائلة: ذلك نص الدستور، لكن كيف؟ ما هو أساس ذلك الأساس؟

وفيما كان النقاش محتدما بقي مُلايْ صامتا لأنه مثل الكثيرين غيره من الشبان قدم إلى الفرح باحثا عن الترفيه وربما تمنى لو تكون تلك فرصته في العثور على زوجة المستقبل، لكن بعد تضارب تلك الآراء وجد نفسه يتابع كل مداخلة بانتباه شديد، يؤيد ويعارض في صمت، حتى صدح صوت مطربة تنشد أغنية: " **يخّوتي الصحراء ما تنباع** " والتي يعود لها الفضل في منع صديقه موسى من مواصلة إزعاجه بآرائه الغريبة، جاءت كلمات الأغنية عذبة وشيقة، وظلت ترن طويلا في مسامعه مستعيداً ما حدثه به موسى من أن الأغنية كتبتها

إحدى النساء إبّان هروبها من مدينة الداخلة، تسلل على رؤوس أصابع قدميه حتى لا يوقظ منّة أو أطفالها، ودون أن يُغَيِّرَ ملابسه تمدد في الفراش الذي وجده في انتظاره في الجانب الشرقي من الخيمة.

حاول أن ينام، لكن النعاس هرب منه، فأخذ يعيد شريط الصور والوجوه من جديد، وعلى الخصوص صورة لشابة بدت شديدة الحياء، جلست وهي تتجنب مباشرة وجوه الرجال وبجانبها أخرى كثيرة المعارف كانت تجرها وتدفعها للتقدم وفيما هي تتمنع، التقت عيناه بعينيها فوجد فيهما توسلاً غامضاً أو اعتذاراً عن تواجدها في المكان غير المناسب، لم يجد من يُعرّفه عليها، ولم يشأ أن يسأل صديقه موسى، فظل يركز على كل ما تمكن من مشاهدته من ملامحها عله إن عاد إلى شقيقته ووصفها لها بدقة أخبرته من تكون، يفكر فيها، ويبحث لها عن اسم معين لأنه يرفض التفكير فيها كنكرة، أو كامرأة فقط، قد يكون اسمها مريم، أو سلمى، أو النجلاء، ثم يجيب نفسه، هذه ربما الأسماء التي تعجبني أنا، بينما قد يكون اسمها مُليّكة، أو فاطمتّو، ربما، لكن بنت من هي؟ في أي مخيم تسكن؟ يتقلب ذات اليمين وذات الشمال باحثا عن أي شيء يقربه من التعرف إليها دون جدوى، لأنه كلما فكر فيها ازداد أرقه، وابتعدت صورتها عن عينيه هاربة حتى لا تترك له إلا تلك الابتسامة الخجولة، أو نظرات التوسل.

. يبدو أن سهرتكم تواصلت حتى وقت متأخر جداً، قالت منّة.

. نعم، قال مُلايْ، لم تنته إلا في حدود الساعة الرابعة صباحاً، وحين جئت إلى هنا لم أنم كذلك.

. لماذا، هل تشكو من شيء؟ سألت منّة في قلق.

. ابتسم مُلايْ وفكر في قول لا، ثم تراجع ليقول: لا أدري كيف أجيبك، نعم ولا.



التقطت منّة تلميحه بسرعة وملأت وجهها ابتسامة فرح دون أن تتكلم. بقيت تحدق فيه بنظرات تقول هل من مزيد، لكن العسكري غيّر الحديث كعادته متظاهراً بالانشغال بتهيئة أدوات حلاقة ذقنه، فتعمدت منّة عدم الضغط عليه، لأنها وجدت في ذلك بادرة قد تشكل خطوة نحو ما حلمت به منذ مجيئهما إلى المخيمات قبل ست سنوات.

كان مُلايْ في بداية رخصته (إجازته)، مما يعني أن أمامه أكثر من عشرة أيام لملاحقة صاحبة النظرات المستغيثة، فقرر أن لا يورط شقيقته في الأمر في البداية معتبراً أن الأمر شخصي، وقال لنفسه، لماذا لا أبدأ من حيث عرفتها وأضعتها في نفس الوقت؟ حفلة العرس، ربما أجد من أستدرجه ليخبرني شيئاً عنها، لكنني الآن سأقوم بجولة لأرى حياة المخيم في عز النهار. مشى دون تحديد وجهة معينة، المهم أن أبتعد حتى أصفي أفكاري، يقول مواصلا مونولوجه الذاتي، لما اجتاز الأحجار المحدِّدة لساحة حيه السكني من جهة الجنوب، صادف امرأة طاعنة في السن، تجلس على شفا خندق دائري الفوهة، وبعدها بمسافة غير بعيدة مجموعة نساء يرتدين ملاحفاً بيضاً من التي تعرف باسم "ماكسي" شبيهة بالملاحف العادية لكنها ليست هي، إذ أن هذه

الحديثة مخاطة بالكامل مثل العباءة الشرقية، وألحق بها طرف علوي لتغطية شعر الرأس، فسأل العجوز لماذا تطوّقون المخيم؟ فردّت عليه، اليوم هو يوم حملة نظافة البيئة، ثم أشارت بيدها، هذه القريبة منا لجنة الصحة، والتي تليها باللباس الأحمر القاتم هي النخب التنظيمية، أما تينك الأبعد فهما لجنة الصناعة تميزها بلباسها المزكرش، والأخرى هم أصحاب الشؤون الاجتماعية بثيابهم الزرق، ومن هم أصحاب اللون الأصفر؟ سألها... تلك لجنة التربية قالت المرأة، ثم استطردت: هذا ليس بجديد، نحن نقوم بهذا منذ تأسيس المخيم، وأنا لم أشارك مع الآخرين لأن صحتي لا تسمح بذلك، لذا عينوني مع مجموعة صيانة خنادق التأمين، وهانحن نستخرج منها الأتربة والأوساخ، هل تريد أن تلقي نظرة؟

بقي مُلايْ واقفا في مكانه، ينظر إلى الكهلة المبتسمة ويديها الممسكتين بحبل تدلى في عمق حفرة الخندق، و إلى كومة من التراب الأحمر وبعض أكياس النايلون، وخرق قماش بجانبها، تحوّل بنظره في بقية المشهد فتصور أنه أمام قرية من المزارعين خرجوا عن بكرة أبيهم وهم يشمّرون عن سواعد الجد يهيئون التربة لغرس الحياة في جو مفعم بالهمة والنشاط، فاكتفى أن ردّ على صاحبة الخندق بابتسامة حيرة، وودّعها مواصلاً سيره حتى صعد على تلة تمكنه من المراقبة عن كثب. جلس يراقب ويفكر في خطة البحث المناسبة، لكنّ منظرَ زُرّاعِ الحياة وما تراءى له من مدارس ودور تربية (رياض الأطفال)، ومستوصفات طبية، وورشات إنتاج، جعله ينسى للحظة ما جاء من أجله ويتساءل: أيعقل أن يحصل كل هذا وأنا في غفلة عنه؟ أطال الجلوس متعمداً مشاهدة الأطفال يعودون من مدارسهم، وكان يفعل ذلك مبتسما ويناجيهم قائلاً: ها هو جيل المستقبل، أتمنى من كل قلبي أن لا تمروا بنفس الظروف السيئة التي مررنا نحن بها، وآمل يا أحبائي أن تكونوا جيل القطيعة مع عهد الظلامية والجهل. وفيما هو على ذلك الحال جرى على لسانه سؤال: متى تكون في انتظار ابنك أنت يا مُلايْ؟ فالتفت ظاناً أن أحدا ما كان يخاطبه، ولما تأكد أن لا أحد معه، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وقرأ البسملة، فتنبه إلى أنه أتى بحثا عن صفاء الذهن ليرسم خطة البحث عن امرأة لا يعرف عنها إلا أن لها عينين جميلتين و ابتسامة ساحرة.

تذكر سعادو وتصوُّرُها للزواج، صديقة شقيقته التي فقدت أمها قبل أن تكمل العامين من عمرها، لتعيش مع أب رفض الزواج حزناً على زوجته وفاء لها، وبقي كذلك إلى أن وقع في الأسر في معركة حوزة، ليخبروها فيما بعد أنه كان من بين الذين رماهم الجنرال أحمد الدليمي من طائرة هيلكوبتر وهم أحياء، مما اضطرها للاحتماء بمنّة التي آوتها بكل حنان ورفق طيلة السنوات الأولى من اللجوء، قالت له مرة إن حياتها كقصة ما زالت في طور التأليف، في كل مرة يأتي من يكتب فيها فصلاً ليذهب وتبقى في انتظار كاتب آخر، وكل الذين مروا حتى الآن لم يترك أي منهم بصمة خاصة يتميز بها عما كتبه غيره، وحين وصفها بالعنيدة أجابته: يبدو أن لدينا قاسماً مشتركاً، أنت ترفض الزواج حتى تتأكد من ضمان السعادة الأبدية، وأنا فراشة

تطير باحثة عن حقل لا تدري ما هي أوصافه، ولما قال لها: قد أفهم من كلامك أنك لم تعرفي السعادة حتى الآن؟ أنكرت قائلة: لا، ليس تماماً يا صديقي، لأنني والحق يقال، عشت لحظات حلوة، وأخرى سعيدة، لكنها لم تدم، أتعرف لماذا؟ لأنني دائما أشعر أنني أخطأت الاختيار. وحين تدخلت أخته منّة قائلة لماذا لا تتزوجا أنتما الاثنان فتستريحا وتريحا؟ رد عليها: الجواب عندك يا حبيبتي، نحن من نفس الجذع، ولقاؤنا لا يشكل التضاد الكافي لتوليد شرارة الانجذاب، وتلقفت سعادو الكلام لتكمل: لا أخفيك أنني في أول معرفتي بشقيقك تمنيته زوجا لي، وسيم الطلعة، قوي البينة، في مقتبل العمر، وأخ لأعز صديقة عرفتها في اللجوء، وقد يكون خالجه بعض من ذلك، لكن كلما تعمقت معرفتنا يتبين لنا أن الأمر لن ينجح، ولن نتجاوز حدود أخوة صادقة ومحبة عائلية وطدها الزمن.

تمنى مُلايْ لو كانت سعادو موجودة في تلك اللحظة ليخبرها بما يعانيه، ثم تساءل هل هي سعيدة في عملها هناك في تلك السفارة؟ وتنهد شفقة عليها، ثم نهض عائدا إلى خيمة شقيقته، فكان أول من وقع عليه نظره ابنتها الصغيرة، الجمهورية، تجلس باسطة رجليها وتستخرج كراساً كبيراً من محفظة رمادية اللون، فسألها، ماذا تفعل دولتي الآن؟ قالت لقد نلت اليوم إعجاب المعلمة، وأهدتني علبة أقلام ملونة، لأنني كنت الأبرع في رسم هذه الصورة، وأخرجت ورقة بيضاء رسمت عليها وجه شاب غير واضح الملامح متكسر الخطوط، وناولته إياها قائلة: أنظر يا خالي، أخذ مُلايْ الورقة، وضم ابنة شقيقته إلى صدره، قائلا: طبعاً يا حبيبتي أنت لست الأبرع فقط، بل والأجمل كذلك، أتعرفين هذه صورة من؟ فقالت الطفلة نعم، إنه **الشهيد**، فاحتضنها بكامل قوته، وأجلسها في حضنه قائلا، بارك الله فيك. فسألته الطفلة: وماذا ستهديني أنت يا خالي؟ احتار مُلايْ بما ذا سيجيب طفلته المدللة، لقد قذف سؤالها في نفسه ما لم يكن يتوقع من تجاذب، وتعجب قائلا: كان يجب أن تقوم طفلة لم تكمل السابعة من عمرها بتذكيرك ما نسيت من أمور الحياة؟ هيا لقد تجاوزت سن الرشد بما يكفي لتجيب على سؤال أكثر من عادي!! ثم يواصل مونولوجه الصامت، أعرف أنه منذ التحاقنا بالجيش ونحن لا نتعامل بالنقود، لا أنا ولا بقية الضباط والجنود، وكذلك سكان المخيمات مثلنا تماماً لا يوجد بينهم من يتقاضى راتباً، وعندما خرجتُ من مدينة العيون لم آخذ معي أموالاً أو مدخرات.

حمل الطفلة بين ذراعيه ووقف باحثا عن جواب، ثم قال لها: وما ذا تريدين أن أهدي لك يا حلوة؟ أريد.. أريد لعبة كالتي عند بنت جيراننا، عروس شقراء جميلة. ومن أين أتت بها؟ سألها مبتسماً، لا أدري، ردت الطفلة، رأيتها تلعب بها البارحة قرب خيمة العرس. ألا تفضلين على ذلك القيام برحلة خارج المخيم؟ سألها... لا، صرخت الجمهورية، أنا أريد تلك الدمية. نظر إلى وجهها الصغير وعينيها المغرورقتين بالدموع، فشعر بحنان كبير يلامس شغاف قلبه، فضمها من جديد وهو يقول: قد تكون بداية البحث عن سعادتي من هنا، ولم لا؟ من لا يستطيع إسعاد طفل واحد لا يمكنه إسعاد بيت أو عائلة بكاملها؟ مسح دموع الطفلة

وأجلسها في حضنه قائلا: طيب يا حبيبتي، لا تبكِ سأبحث عن مثلها أعدك بذلك، لكن أرجو أن تمهليني بعض الوقت وسترين كيف أحضرها لك، قال الكلمة الأخيرة وهو يفكر أنه ليس إلا صبياً مثل الطفلة الجالسة أمامه يبحث هو الآخر عن دميته التي ما إن وجدها حتى أضاعها في نفس العرس الذي رأت فيه الجمهورية دميتها الشقراء، ثم تساءل: هل سيُكتب لي لقاؤها مرة ثانية، وقطع على نفسه العهد أن لا يضيع الفرصة في التقدم منها لطلب الزواج، لكنه تشاءم قائلا، وإن كانت متزوجة؟ هذا ما لم أفكر فيه أبداً، لا بد أن أفاتح منّة، لتعينني على الأمْرين: إحضار دمية للجمهورية، والبحث عن.. وتساءل عما ذا؟

منذ ذلك الوقت دأب مُلايْ على القيام بجولة صباحية، أتبعها لا حقا بأخرى مسائية، كان يتسكع عند الإدارة حينا، ويزور بعض المعارف في مخيمات مجاورة أحيانا أخرى، مواصلا بحثه دون كلل أو ملل، حتى قاربت رخصته (إجازته) على النهاية، عاد ذات مساء على غير عادته، لم يهتم بالطعام ولا بالأطفال، وإنما طلب من شقيقته أن تمد له فراشا أمام باب الخيمة، لأنني متعب جدا يا منّة، قال لأخته، فما كان منها إلا أن استجابت لطلبه، وبسطت قطعة قماش أخضر وفوقه نشرت بطانية ووضعت عليها وسادتين، ثم أقفلت راجعة وأحضرت عدة الشاي، وجلست بالقرب منه تدلك قدميه، وتسأله: هل لديك ما تريد أن تخبرني به يا مُلايْ؟ فتعجب من سؤالها، كأنما كانت تقرأ أفكاره، فالتفت إليها باسماً، وقال إيه والله، منذ ليلة فرح الجريح وأنا في عذاب ما بعده عذاب، وراح يحكي لها بتفصيل دقيق كيف جرت الأمور معه، وختم قائلا: هل تظنين أنك قادرة على المساعدة؟ لم تجب منّة على الفور، وإنما أوهمت شقيقها أنها منهمكة في إعداد الشاي، بينما حقيقة أمرها أنها كانت تفكر في هذا التغيير الذي حصل لأخيها، من رافض لفكرة ارتباط جدي مع أي امرأة إلى ولهان تائه يبحث عن صورة، شعرت بالقلق حياله، وقرأت البسملة في صمتها، كانت ظلمة الليل تمنعها من تبين قسمات وجهه، لكن نبرة صوته كانت كافية لإشراكها فيما يعانيه من ألم، فأوحت لها فطرتها الأنثوية بجواب مطاط يفتح باب الأمل الواسع دون تقديم التزام محدد، قالت له: طبعا سأساعدك يا أخي، ولا تقلق فأنا لدي الكثير من المعارف، ولا بد أن أعثُرَ على من يعرّفني على صاحبتك ويدلني على مكان سكناها، لكنني أتساءل: هل أنت جاد فيما تقول؟ هل تعلقت بها لدرجة الاقتناع بالزواج منها إن كانت غير متزوجة ورضيت بك؟ غدا ستصل سعادو وقد تكون مفيدة في مثل هذه المهام "الصعبة"، وهل أخبرت موسى بأمرك؟

ـ هو، لا، أرجوك يا منّة، لأنني أعرف رأيه، سيقول لا تتعب نفسك في البحث يا مُلايْ، فالنساء كلهن سواء، وستدرك حين تتزوج أنني أصدقتك النصح، في حين لا يعلم أن كل الذين يشجعونه على الطريق الذي يسير فيه إنما يغمزون من خلفه ويزدرونه لما يقوم به؟ أما سعادو فنعم، لأنها على الأقل صادقة ولن تكون لها أي غاية من وراء ما ستقدم من نصح أو من خدمة.. صمت مُلايْ حين تذكر كم كانت متحمسة حين ناقشت معه مسألة الزواج، وعلى الخصوص عندما قدمت له صديقة لها بدينة قالت سعادو إنها تعمل في قسم

الإشارة بوزارة الداخلية، ولما لم تجد لديه حماسة للأمر، انفجرت غاضبة بعد ذهاب صديقتها، لاسيما حين قال مُلايْ، هذه لا، لأنني لم أجدكِ فيها، فردت سعادو أنت أعمى؟ فقال لها: لا، لقد وجدتُّ فيها منّة شقيقتي، أي المرأة الجدية، المتفانية، وربما المتسامحة، لكن الشق الذي تمثلينه أنتِ في المرأة التي أريد كان غائبا، أي المرأة المتسلطة، التي تعلم أنها جميلة وتعتز بذلك، مما يجعلها غير مبالية وربما مغرورة، حتى يأتي من يروضها، فردّت عليه، أنت مجنون حقاً، فقال لها: لا، منّة هي العطاء، وأنتِ هي الأخذ، وأنا أريدكما معاً.

بدأت نُذُرُ الصيف تطلُّ من وراء الحجب، وامتلأ الجو العام للمخيمات بالتهيئة لما ستعرفه الصائفة (فصل الصيف) من برامج، لاسيما بعد عودة التلاميذ والطلبة الدارسين في الخارج، فعاد مُلايْ إلى المخيمات بعدما حصل على رخصة (إجازة) مفتوحة بسبب اعتلال في صحته ظل يهمله ويرفض الامتثال لأوامر الطبيب العسكري طيلة أربعة أشهر، لكن جاء يوم توعك فيه بشدة، وقرر الطبيب بالاتفاق مع قيادة الناحية العسكرية إبعاده عن جبهة القتال حتى يحصل على أكبر قدر من الراحة ويستعيد عافيته بشكل كامل، تزامنت ساعة مجيئه إلى المخيم مع وقت دخول حافلات التلاميذ والطلبة الدارسين في الخارج، وكانت الولاية تقيم مهرجان ترحيب بمقدم أبنائها وبناتها وتُكَرِّمُ المتفوقين منهم بالإضافة إلى الأطقم التي أشرفت عليهم أثناء ذلك، فتوجه مُلايْ ورفاقه العسكريون الذين جاءوا معه إلى المهرجان مباشرة ووجدوا ساحة رشتها صهاريج المياه لتهدئة الغبار، وزُينت بالأعلام الوطنية وصور الشهداء، تتوسطها منصة خطابة أعدت من الخشب وبراميل الزنك، جلس عليها أعضاء من مجلس الولاية وبعض أعيانها، وحين ترجّلوا من سيارتهم جاء من يبلغهم أن الوالي يطلب منهم الصعود إلى منصة الشرف، لم يستغربوا الأمر، إذ درجت العادة على تقدير المقاتلين وإجلاسهم في الصدر في كل المناسبات. تتالت الخطب، بين منوه بالنتائج الدراسية والمستويات العلمية التي أتى بها الغائبون مستدلا على أهمية الأمر باستحضار مثل شعبي يقول: "الغائب لا يُسألُ كم أمضيت ولكن يُسألُ بم أتيت"، ومنشط الاحتفال يكرر بعض الشعارات بين الكلمة والأخرى، أو يفسح المجال لفرق المخيمات للتعبير عن فرحتها، ويتخلل كل ذلك توزيع شهادات التقدير والجوائز، جائزة التحصيل الدراسي يقدمها الوالي، وجائزة حسن السلوك يقدمها واحد من الأعيان، إلى أن حان تسليم جائزة أفضل مربية ساهمت في إرشاد البنات وتوجيههن طيلة السنة الدراسية، وهي التي كانت وراء نجاح الكثيرات منهن... الأخت المناضلة: المعلومة منصور، ويقدم لها الجائزة ـ يعلن منشط المهرجان ـ المقاتل مُلايْ ولد الصالح، فوجئ مُلايْ بالأمر، إذ لم يكن في حسبانه، فنهض متثاقلا بل ومرتبكا بعض الشيء، ووقف ينتظر وصول المعنية، كان يتساءل هل يصافح المرأة، هل يكتفي بتقديم الجائزة لها دون المصافحة، والذي لم يخطر بباله، هو أن القدر يخبئ له مفاجأة لن تتحملها قواه الواهنة. اقتربت المرأة في حيوية وفرح ظاهرين على محياها، كانت رشيقة القامة، سمراء بعينين يشوبهما حور خفيف، تدلّت فوقهما خصلة شعر أسود فاحم تمرّدت على الملحفة رافضة الاختباء، وحدقت

إلى مُلايْ مبتسمة، عندما كان يهم بتقديم الجائزة لها، فترنح في وقفته، كمن صعقه تيار كهربائي، مرت ثوان والمرأة باسطة يدها ومُلاي ْلا يستجيب، ثوان كأنها زمن، أعادت له ليلة فرح الجريح بتفاصيلها، العينان المتوسلتان، والابتسامة الخجولة، ولولا صراخ المنشط يكرر شعار كل الوطن أو الشهادة، لكان قفز واحتضنها بين ذراعيه ووضعها في سيارته العسكرية وانطلق دون وجهة، المهم أنه وجدها، المهم أنها حقيقية وليست من تخيله، ولا من بنات فكره، كرر الاسم، ثم أعاده قائلا: طبعاً هي معلومة، ذلك ما اعتقدته دائما، لكنه احتار في الطريقة التي يحافظ بها عليها حتى لا تضيع منه ثانية، أخذت الشابة جائزتها ورفعتها بين يديها تحية للجمهور الذي أعاد لها التحية بالزغاريد والتصفيق، ثم نزلت عائدة نحو مكانها الذي أتت منه معتزة بأن من قدم لها جائزتها هو مقاتل، ولذلك حرصت حين استلام الجائزة على أن تتفحصه من رأسه حتى أخمص قدميه بطريقة خفية، وحين التقت عيناهما شعرت بوقع عينيه الكبيرتين حتى ظنت أنهما ستغشيان بصرها، فأطرقت بنظرها إلى الأرض وبقي عقلها مشوشا يتساءل ما هذه النظرات؟ أيعقل أن تكون نظرات المقاتلين نفاذة وخارقة كرصاص بنادقهم؟ سؤال وجهته إلى ابنة خالة لها كانت تجلس بقربها في المهرجان، فهزأت منها قائلة: يبدو أن المدينة أفقدتك بعض المناعة أيتها المعلومة.

لم يضيّع مُلايْ الوقت، فور عودته إلى مكان جلوسه، استأذن من رفاقه العسكريين في الانصراف بعد أن تواعد معهم عند السيارة حين انتهاء المهرجان، وتوجه إلى ما وراء الصفوف الخلفية مبتعدا عن الضجيج حتى أصبح على مسافة قَدّرَ أنها تسمح له برسم خطة تمكنه ليس من الاتصال بها فقط، وإنما للتعرف عليها والحفاظ عليها حتى لا تضيع منه مجدداً، وبعد أن اطمأن إلى رأيه قَفِل عائداً واختلط بالصفوف الخلفية باحثاً عن أخته أو عن أيِّ أحد يعرفه قصد إجراء اتصال مع المعلومة، رغم كرهه لتلك الصفوف، لأنه يعلم من تجربته الخاصة أن الحشود الخلفية في المناسبات العامة هي مكان صائدي المواعيد الليلية، إذ يشتد الزحام، ولا ترى إلا رجلا ملثّماً، أو امرأة تختفي وراء نقاب، عتب على حاله حين رأى بعض المناظر الموحية بما يرفض أن يكون سببا لتواجده هناك، وبرّأ حاله نفسه في أن الضرورات تبيح المحظورات، سار وسط الزحام، ورغم أنه لحظ وجود بعض التجمعات المريبة لاسيما وأن الليل أرخى سدوله، وغابت الشمس التي قد تبرر اللثام أو النقاب لاتقاء أشعتها، كما أن أنوار الاحتفال كانت بالكاد لا تتجاوز الصفوف الأمامية من الحشد، لكنه لم يبالِ وتقدم ببطء حتى حالفه الحظ بالتقاء صديقه موسى يقف مع ممرضة سبق أن تعرف عليها في بيت أخته، فسلَّم عليهما، وسألهما: هل رأيتما منّة؟ نعم، كانت هنا قبل قليل، ولكن جاء من يطلبها إلى المستشفى وذهبت، ردّت الممرضة، لكن متى وصلت يا مُلايْ؟ أنا لم أرك إلاّ حين سلّمت تلك الجائزة؟ قال موسى. لم يجب مُلايْ على الفور، فقد كان منشغلا بالطريقة التي سيتصل بها بالمعلومة، وثانيا تطيّر شراً من رؤية موسى في تلك اللحظة، لاسيما وأنه لم يكن يرغب في إشراكه في خصوصياته، لمعرفته بأن صديقه زير نساء ولن يبرح

مطرح تلك المرأة، والله يعلم ما قد يريد منها؟ بيد أن حراجة الموقف، وضيق الوقت، جعلا مُلايْ يفكر بسرعة باحثاً عن طريقة يبعد بها موسى عن المرأة أو يبعدها عنه، عله يكلفها بالبحث عن المعلومة، فالتفت إلى الممرضة وقال: أنتِ التي أبحث عنها، فردّت عليه بتعجب: أنا!! نعم، أنتِ، قال لها، وماذا هناك؟ سألته الممرضة، هل رأيت تلك المرأة التي استلمت قبل قليل جائزة أفضل مربية؟ اسمها المعلومة، نعم، تلك جارتي في مخيم الدشيرة وما بها؟ سألته المرأة. سأقول لك فيما بعد، رد مُلايْ، لكن موسى تدخل مازحاً كعادته، وقال: هل هناك سر؟ أخبرنا أيها الجندي، ماذا تريد من المربية؟ فردّ مُلايْ بانفعال متصنع، وأنت ماذا دهاك؟ وما شأنك وشأن المربية؟ فأدرك موسى أن صديقه في مزاج لا يقبل المزاح، فتراجع قائلاً، لا تغضب يا صديقي، أنا فقط أتمنى أن أجد امرأة قادرة على إدخالك قفص الزوجية أيها الكهل الأعزب. لم يسمع مُلايْ ما قال صديقه، إذ كان غارقاً في تفكيره، في مصادفة اللقاء، ويهيئ نفسه للقاء الأول، ويسأل نفسه، وماذا سأقول لها؟ هل أخبرها بأول مرة رأيتها فيها؟ هل أقول لها إنني أحببتها منذ تلك اللحظة؟ قد لا تصدق، فمثل هذا الكلام يقوله الجميع، وربما ظنتْ أنني أخذته من كتاب أو من قصة حبٍّ قرأتها، لكنني فعلا أحببتها من نظرة واحدة في ليلة أطيافٍ، ورغم أن الكلام عن الحب متكرر عبر العصور، فهو يختلف باختلاف قائله وسامعه، ووقعه، وصدق نبرة صاحبه، المهم الآن كيف سأتدبر أمر موسى؟ فهو لن يتركني بسلام حتى أخبره بما يريد، وهذا طبعه الذي لا يمكن أن يُلامَ عليه، فالتفت مبتسماً نحو موسى، ونظر في عينيه قائلا: سأجيب على سؤالك، لكن بشرط، موافق؟ ردّ موسى في لهفة. ابتسم الناجم، وفكّر: أعرف أنك ستقبل، فأنت لست سوى ذلك الطفل الذي فشل في امتحانات الابتدائية، ولجأ إلى العمل باكراً ليُعيل أهله، ولم يوفق في البقاء في وظيفة لأكثر من شهر أو شهرين، وتدرج هبوطا في سُلّم المهن حتى أصبح في الشارع، وهذا ما ينطبق على حياتك الاجتماعية، لا تعرف الاستقرار في بيت أو مع زوجة حتى تفكر بأن أخرى أفضل منها، ثم نظر في عينيْ موسى قبل أن يقول: أنا أحب فيك أمورا تعرفها لأنني خبِرتها في أوقات الشدة والظروف العصيبة، لكن كما قلت لك دائما، أنت رجل وحيد الفائدة ووحيد مجال النفع، مثل السلاح، لا تصلح إلا للمعركة، وحين تنتفي الحاجة إليك يجب أن توضع في مخزن مغلق، بقي موسى صامتاً تُطِلّ من مقلتيه علامة استفهامِ فضولٍ طافحة يكبحها تردد يكاد يعتذر عن الاستماع لما سيخبره به صديقه، حتى قال مُلايْ: سأروي لك كل شيء الليلة عند منّة، وشرطي هو أن تتركني أنا الآن مع هذه الممرضة لأخبرها ما أريد من المربية، هل تقبل؟ موافق... قال موسى بلهفة، كمن تم إنقاذه من ورطة، لاسيما وهو يعرف جيدا طباع مُلايْ، وخشيته منه حين تطل الجدية من جبينه.

. عفواً، قال مُلايْ، هل موسى.. وسكت.

ـ ابتسمت الممرضة لما فهمت من تردد مُلايْ، وقالت: موسى يتردد على جارة لي تعمل في فرقة الأغاني، وهي ناشز من زوجها، وحين وجدتنا كان يسألني عنها، لكن لا أظنك تقف هنا لتسألني عن موسى؟

. طبعاً لا، أنا هنا لما قلتُ لكِ قبل قليل، أي من أجل المعلومة، قال مُلايْ، ثم أردف، ما الذي يمكنك أن تخبريني عنها؟

. لست أفهمك، ردّت الممرضة، سبق أن قلت لك ما أعرف عنها، ماذا تريد غير ذلك؟

كان سيسترسل، لكن ضجة انفضاض المهرجان، وبدء تصدع الحشد البشري، هذا يتأبط ذراع ابنه أو ابنته العائدة من غياب سنة دراسية بكاملها، وتلك تطلب من يعينها على حمل حقائب أولادها، كل هذا حوّل نظر مُلايْ عن الممرضة باحثا عن المعلومة، فطلب من الممرضة أن ترافقه إلى السيارة، فوجداها قد امتلأت بالركاب، مع رفاقه العسكريين، وحين سألهم مُلايْ، إلى أي وجهة هم ذاهبون، أجابوه إلى مخيم بوكراع. يبدو أنهم عرفوك، قالت الممرضة، لم ينزعج مُلايْ من ذلك وإنما طلب من أحد أصدقائه أن يوصلهم ويعود إليه بالسيارة، ولما عاد هذا ركب هو والممرضة إلى جانبه وامتلأت السيارة من جديد بالركاب الذين لا يستأذنون، لكن هذه المرة كانوا ركاباً من دائرة الدشيرة.

مُلايْ، خالي مُلايْ تصايح الأطفال مهللين بمقدم خالهم وصاروا يتزاحمون أيهم يكون الأسبق، عندما وصل الأخير إلى بيت شقيقته قرابة الساعة العاشرة ليلاً، وجدها تُنزل صفيحة ماء أحضرتها من البئر وقد تبلّلت ثيابها مما تدفق عليها من ماء اختلط بعرق جبينها وجعلها تبدو أكبر من عمرها الحقيقي بالنصف على الأقل، ارتمت عليه تعانقه وترحب به، وجلس الجميع في الجزء الشرقي من الخيمة مبتعدين عن المصباح الغازي بعد أن رفعت منّة الجوانب السفلية المكمّلة للخيمة حتى تفسح المجال لهواء يخفف من حرارة الجو، وأجلست شقيقها وصديقه الذي دخل في تلك اللحظة كما لو كان يراقب مجيء مُلايْ، في تلك الفسحة. كانت ليلة هرج ومرج في كل مكان، معظم العائلات تستقبل أبناء وافدين من الدراسة بالخارج، ومن لا أولاد لهم في تلك السن يشاركون جيرانهم فرحة مقدم فلذات الأكباد.



. سألتُ عنكِ في المهرجان قيل لي إنكِ دعيتِ إلى المستشفى، ماذا هناك؟ سأل مُلايْ.

. علمت بذلك، فقد أخبرني موسى أنكَ تواعدتَ معه هنا، لكن ما معنى أن تتوجه إلى المهرجان قبل أن تفرحني بمجيئك أولاً؟ هل عدت لضلالك القديم؟ ردت منّة منفعلة.

استقبل مُلايْ انفعال أخته برحابة صدر، وابتسم مدركاً أن موسى قد أوحى لها ببعض تخميناته، مكتفياً بالقول: ليس هناك من سبب للضلال.

. نظرت إليه بتعجب، وقالت: ما ذا تقصد يا مُلايْ؟

. أقصد، يا أغلى أخت، أنني وجدتها.

أُسْقِطَ في يد منّة، ولم تعرف هل تفرح أو تحزن، ولا بما ذا سترد، تلعثمت في كلامها وهي تقول: لا، كيف، هل أنت جاد؟ من هي؟ وأين تسكن؟ وابنة من؟ هل هي ...؟ هل هي جميلة كما تصورتها أول مرة؟ هل حقا تعرفت عليها، أعني كلّمتها؟ صَدَقَ موسى إذن؟

ـ تمهلي، ماذا بك؟ كيف سأرد على سيل الأسئلة الذي صببت على رأسي؟ لن أقول لك إلا كلمة واحدة: نعم، لقيتها وكلّمتها واسمها المعلومة بنت منصور، وهي مربّية تعمل مع قسم الطالبات في ليبيا، وتسكن هنا في مخيم الدشيرة، لكن ماذا قال لك موسى؟ والتفت إلى الأخير في تساؤل، لا، أخبرني أنت، ماذا قلت لهذه العجوز؟

ضحك موسى بخبث وتهرب من الإجابة بالتعليق على نعت منّة بالعجوز، فرد مُلايْ، ألم ترها حين وقفت هنا قبل قليل، كيفت كانت ثيابها بل أسمالها مبلّلة، ووجهها شاحب وأنفاسها تتلاحق، ثم التفت إلى أخته، وقال لها: لقد آلمني منظرك يا غالية، لماذا لم تنتظري حتى يأتي من يساعدك؟ ضحكت منّة هازئة، ثم أردفتْ بانفعال، أنتَ وصلتَ اليوم بعد غياب ستة أشهر، من كان يساعدني طيلة غيابك، بل طيلة تواجدنا هنا؟ سامحك الله يا شقيقي، ألم تتساءل يوما كيف نقوم بكل ما نقوم به؟ لو فكرت من أين لنا الوقت لكل ذلك فقط؟ واجبات تنظيمية تبدأ من الثامنة صباحاً، أُسرٌ وأطفال ينازعون المؤسسات على حق الأسبقية فينا، ثم من لحفر الآبار ومن لبناء المستشفيات والمدارس ودور المسنين غيرنا؟ من للخيام المعرضة للزوابع وترقيعها، بعد قصها وخياطتها وزخرفتها؟ ومن للضيوف؟ ومن؟ ومن؟ هل فعلا تساءل أي واحد منكم يوماً، من أين لنا هذه الطاقة لننجب الأطفال ونربيهم؟ أو، ولا تؤاخذاني، كيف نجد الوقت لكي نُحِب ونُحَبْ؟ دعونا من هذا الحديث الآن، قال موسى، هيّا يا مُلايْ أخبرني بما وعدتني أن تخبرني به، نعم يمكنكم التهرب من الخوض في مثل هذا الحديث، قالت منّة، لكن سيأتي اليوم الذي تجبرون على الخوض فيه. نعم، استجاب مُلايْ، ملبياً ما كان يعرف أنه شفاء لغليل موسى وفضوله، فعل ذلك بارتياح لم لاحظ على صديقه من شغف الاستماع، متعمّداً الإغراق في التفاصيل حتى ينير عقل موسى الشيطاني الذي وإن كان له عليه الكثير من المآخذ، لكنه كان واثقا من صدق رغبته في المساعدة، وللاحتياط ختم مؤكداً، أريدك أن تساعدني بما ورثت عن إبليس من خبرة، لكن على أن تبقى بعيداً، ولا تتخذ أي مبادرة من وراء ظهري، وإن فعلتَ فسيكون فراق بيني وبينك مدى الحياة، هل تقبل؟ بكل سرور، قال موسى.

لم يعرف مُلايْ إن كان نام تلك الليلة نوما هادئا، بسبب التعب من سفر دام ثلاثة أيام بلياليها، أو أنه دخل فيما أسماه المسافة الفاصلة بين النوم واليقظة، لكن الأكيد هو أنه شعر براحة بال عميقة، كانت مصادفة اللقاء بالمعلومة، واهتداؤه إلى عنوانها الكامل أمراً مستبعداً جداً بالنسبة إليه، تذكر قبل غيبوبته تلك اللحظة التي سلم فيها واستأذن ليدخل خيمة أهلها، أنه كان وجِلاً بعض الشيء، لكن ما إن رحبوا به وهيأوا

له وبجارتهم الممرضة فراشا للجلوس حتى عاد إليه تماسكه، ولم يجد صعوبة في الدخول مع أمّ المعلومة في حديث مستطرد فوّت عليه فرصة الكلام مع المعلومة التي انشغلت بإعداد الشاي، وتجاذب أحاديث شبه سرية مع الممرضة، علِم بعد مغادرته من الممرضة أن المعلومة تعيش مع أبويها في تلك الخيمة، ولم يتجرأ أن يسأل عن حالتها الاجتماعية، اكتفى بما عرف، واعداً نفسه بالعودة والتردد حتى يحقق حلمه.

صيف المخيمات رغم حرارته مليء بالحياة، بدءاً بالانقلاب الديمغرافي الذي تحدثه عودة التلاميذ والطلبة، وما يعنيه ذلك من تجمع لذويهم من كل حدب وصوب، من المخيمات، ومن المؤسسات، ومن الجيش، وحتى من العاملين في الخارج، ظرف تتغير فيه الأوضاع المعيشية بشكل عام، إنه فصل الإنفاق بامتياز، وكما يقول المثل المحلي: "صره عاقب الصيف مزغوبة" (المدخرات التي لا تنفع في أوقات الشدة لا فائدة منها) حيث تتجمع كل أسباب الإنفاق، مجيء الغائب العزيز، والتئام شمل كل أفراد العائلة، في فصل يتميز بالصعوبة دون غيره، كما تطغى حياة تنافس إيجابي بين طلاب كل مخيم فيما بينهم ضمن تصفيات تؤهل الفائزين فيها إلى منافسة طلاب المخيم المجاور أو الذي يليه، مؤازرين من عائلاتهم، ومن مجالس التسيير في كل مخيم، لتتوج كل مراحل التنافس في مهرجان عام تختتم فيه المسابقات الرياضية، والثقافية والفنية التي بقدر ما تنهك الناس فإنها تملأ حياتهم وتغنيها بما تخلق من أجواء مرح يساهم في تحمل عبء حرارة المناخ الطبيعي. لا يوجد من لا دور له، المرأة تشرف وتنظم وتتعلم، المقاتل مطلوب لتجربته القتالية، والكهل لحكمته وما يمكن أن تجود به ذاكرته من تراث ومثل وقيم، والطالب أو التلميذ، لما هو مؤمل منه من تعليم الآخرين وإفادتهم بما تعلم، أنشطة تدمج الكل مع الكل لرسم صورة ما يجب أن يكون، أي الأمل الذي يسوّغ تحمل كل تلك المعاناة وحياة البؤس المادي ويؤكد أن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده.



ما كنت أقدّر كل الجهد الذي يُبذل هنا في المخيمات قبل هذا الصيف، قال مُلايْ لشقيقته منّة، وهو يعدد لها إسهاماته، تصوري، لقد طلبتْ مني لجنة التحكيم الولائية الانضمام إليها، ليتابع متذمراً، وهذا سيقلّص من وقت الفراغ لديّ، لقد أصبحت مشطوراً بين أخت ترفض أن أنام في غير بيتها، وقلب يأبى أن يعطي الوقت لغير المعلومة، بت أقضي الليالي الطوال جالساً في حلقة نقاش، أو منكباً على تصحيح بحوث متنافسة لإعطاء علامة الامتياز لهذا أو ذاك، ولولا حماسة هؤلاء الطلاب والطالبات ما تمكنت من تحمل هذا العبء المضني، لقد بهروني بحماستهم، وتلهفهم لبناء مجتمعٍ يصفونه كما تصوره لهم مطالعاتهم المكتبية، كما أنهم أحبوني لدرجة أن البعض منهم صار يناديني بصديق الطلاب.

نظرت منّة إلى شقيقها بإعجاب وأردفت: طبعا هم كذلك دائماً، أنت تقول هذا لأنك لم تحتك بهم قبل هذا الصيف، لكن أخبرني ماذا لاحظت عليهم؟ فكر مُلايْ وعلامات الرضا تملأ وجهه، ثم أجاب: تَغَيُّرُ لهجتهم وما تزود به قاموس تعبيرهم من كلمات كنت لا أسمعها إلا في المسلسلات الإذاعية، مثل يا سلام، يا

ريت، يا نهار إسود، استمعت معهم إلى أغاني أم كلثوم، وعبد الحليم حافظ، وميادة الحناوي، وأعجبت كثيرا بمارسيل خليفة، الذي ما كنت أعرف من أي بلد عربي هو، وصمت كمن يفكر ثم واصل، وأهم شيء أنهم أيقظوا لديّ نهماً لمطالعة الكتب العربية، تصوري مع كل الانشغال استطعت قراءة روايتين هما كفاح طيبة، ومدن الملح، أهدتهما لي طالبة من مخيم القلتة، تدعى سكينة، ويُلقبونها مي زيادة لولعها بالأدب العربي، والغريب أنني رغم كل هذا التعب شعرت أن صحتي في تحسن مضطرد، ولم أراجع الطبيب طيلة الصيف إلا مرة واحدة، ثم التفت إلى منّة مفتخراً ليعلن: والأهم أنني تمكنت بمساعدة أصدقائي الشباب من العثور على دمية للجمهورية، لم تكن شقراء، لكنها فرحتْ بها كثيراً وقبّلتني عربون عرفان ومحبة.

. لا، الأهم أنك التقيت المعلومة وتعرفت على عالمها وأرحتنا من الانشغال بك، قالت منّة ضاحكة، لتكمل سائلة: وما ذا ستفعل الآن؟

ـ لديّ بعض الأوراق التي ينبغي إتمامها قبل الغد، أجاب مُلايْ وهو يتجه إلى ركن من الخيمة كان يتخذه مكتباً ينزوي فيه مع أوراقه، فقرب الصّامبوجة (المصباح الغازي) منه، وبعثر الأوراق والدفاتر أمامه، وبدأ يطالعها مستغرقاً في محتوياتها قبل أن يشعر بالنعاس يتسلل إلى جفونه يصحبه وجه المعلومة وبسمتها الخجولة، فاغتبط اللحظة بل تآمر معها ليحلق عائداً إلى جلسة من جلساتهما التي تحادثا فيها كثيراً، حين أخبرته أنها رابعة بنات أهلها، وأنها زوجة شهيد سقط في معارك لمسايل، تقيم مع أبويها، وبعد أن ترملت عملت في قطاع التربية إلى انتدبتها مديرية التربية لحسن سلوكها للإشراف على قسم البنات في مدرسة 12 أكتوبر الوطنية بالقسم الداخلي، ذلك ما يفسر اختفاءك وعدم تمكني من العثور عليكِ، علّق هو، قبل أن تسترسل المعلومة، بعد ذلك عرضت عليَّ وزارة التعليم العمل في الخارج، في المكان الذي أنا فيه الآن وقبلتُ، أيقظه صوت الجمهورية تطلب ماء للشرب، ففتح عينيه يتفحص الأوراق المبعثرة، فضمها إلى بعضها، وخفف ضوء المصباح الغازي، وعاد بتفكيره يستجمع تلك اللحظات التي تنوعت فيها أحاديثهما وتشعبت مرورا بحياة كل منهما، وما يحلم به، وما هي هواياته، حتى الألوان المفضلة لكل واحد منهما، اكتشف أنها تقدس زوجها الشهيد، وأنها مخلصة لذكراه، لا تفكر في الزواج، بل تراءت له كالراهبة البتول التي نذرت نفسها لخدمة الآخرين، دون أن تطلب شيئاً لنفسها، بسيطة، متفانية، خجولة رغم ما تجبرها عليه حياتها المهنية من اختلاط مع الآخرين من رجال ونساء، تعشق الكتب والمطالعة، وتحب الترتيب والنظافة، ومن أبر الناس بوالديها. سألها مرة عن ليبيا وعن العيش فيها، وعن البنات ودراستهن، وعن السفر من هناك إلى المخيمات كيف يكون، وهل تفضل الاستمرار في غربتها أم أنها قد تختار البقاء في المخيمات، فردت عليه: أنا لا أغادر المخيمات يا صديقي، لأنها تسكنني، قد لا تصدّق يا مُلايْ أنني كلما رأيت منظراً جميلاً، أو تناولت وجبة شهية، أو عشت لحظة فرح، تنتقل مشاعري وخواطري بسرعة الضوء إلى هذه المخيمات وإليكم أنتم في جبهات القتال، متمنية مشاطرتكم

ما أنا فيه.. بقي مُلايْ ساكتا حتى يترك لخياله مجال الاسترسال غائصا في عيني المعلومة، التي كلما تقاذفه موج نظراتها الخجولة تمنى أن يغرق أكثر، وأحسّ أن مخدرا يسري في كامل جسمه، أو أنه منوم مغناطيسيا ليتمكن من الإفصاح عما يستعصي عليه البوح به في يقظته الكاملة، أخبرها كل شيء عن نفسه، مستواه الدراسي، وفضل أخته منّة في ذلك، كما كشف لها أين رآها، وأعاد تفاصيل تلك الليلة التي لا يعرف إن كان يسميها بالميمونة أو المشؤومة؟ فضحكت وسألته لماذا مشؤومة؟ لما تسببت به لي من بحث مضنٍ، وأضاف: أنا كنت راغباً عن الزواج، بل كنت أراه في غاية الصعوبة، لما يمثله من مغامرة الإقدام على الارتباط بشخص لمجرد انجذاب غريزي نحوه، وأتساءل كيف أتجاوز تلك العقبة؟ لأنني واثق أن من يرغب في التقرب من شخص آخر، سيحرص على تقديم أفضل ما لديه، والمؤكد أن الصراحة حتى وإن لم تغب كلياً فلن يكون لها حضور الإغراء، بالإضافة إلى أنه لديّ أصدقاء أو معارف إن صح التعبير، أرفض الإقتداء بهم أو تقليدهم، مثل صديقي موسى الذي عرفتك عليه، فهو كما أخبرتك يتزوج ويطلّق بالبساطة التي يخلع بها ملابسه. أو أن أكون أنا مثل سعادو صديقة منّة، قالت المعلومة، فتاة جميلة ومتعلمة، لكنها فاشلة في حياتها الاجتماعية. لا، أنت لم أقارنك يوما بسعادو، هناك شيء في داخلي ظل يخبرني دائما أنك من أبحثُ عنها. ضحكت المعلومة، وعلّقت، ألا ترى أنك تجامل؟

قطع عليه حبل تفكيره دخول جارة لهم استأذنت ثم سلمت وطلبت من منّة أن تخرج معها، فغابتا عن ناظري مُلايْ ، مما جعله يستيقظ من جديد لمدة عشر دقائق وهو يقول يا لها من مصادفة عجيبة، أتذكر أنني لما هممت بالرد على سؤال المعلومة جاءت جارتها وانتزعتها مني، وعندما والبسمة تملأ محياها سألتني: هل تعرف لماذا جاءت هذه الجارة؟ فهززت رأسي بالنفي، ثم قلت محتجاً: كل ما أعلمه هو أنها أتت في وقت غير مناسب. ردت عليّ المعلومة من بين ضحكاتها، لا تقل ذلك، ثم لا تنس أن النبي صلى الله عليه وسلّم أوصى بسابع جار، وهي لو لم تكن تظن بنا خيرا لما لجأت إلينا في مثل هذه الساعة، وقد جاءت تريدني أن أعلمها كيف تطهو باكالاو "سمك القد"، فهي حديثة العهد بالمخيمات.

بقي مُلايْ في انتظار عودة شقيقته التي تجاوز غيابها نصف الساعة، فنهض من مرقده، واقترب من قدح الماء الذي كان قد وضعه فوق برميل قصد تبريده، فتذوّقه ثم شرب نصف ما فيه، وأعاد تعبئته من جديد، ولما هم بإعادته إلى مكانه جاءت منّة متهالكة، وطلبت منه أن يقرب منها قدح الماء إذا كان بارداً، لبى طلبها وقال: أين كنت في هذه الساعة؟ فأجابته، ذهبت مع تلك المرأة لمعاينة أمها المصابة بمرض عضال أكد الأطباء أن لا شفاء منه.

. وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة ذهابكِ أنتِ؟ سأل مُلايْ.

. إنها أمها يا مُلايْ، قالت منّة، هي وأنا كلانا نعلم أنه لا يوجد ما نفعله للمريضة، لكن حين يقسو المرض على العجوز تطلب منها أن تحضرني، لأنها كانت جارتي في بداية اللجوء، كما توليت العناية بها أيام بقائها في المستشفى الوطني، كنت أترجم لها ما يقوله الأطباء الأجانب، وأخصها بما أستطيع من طعام تشتهيه فتوطدت ثقتها بي، وأصبحت لا تصدق إلا ما أقوله أنا.

. صمت مُلاي طويلاً، ثم قال: أتمنى البقاء لهذا النوع من العادات، البارحة رأيت مشهدا أثلج صدري، بعد هبوب تلك العاصفة الرملية التي أطاحت بالكثير من الخيم، كنت مع واحد من الطلبة عند أهله، وكنا نتهيأ للغداء حين اقتلعت الريح الخيمة من فوق رؤوسنا، فهب جميع من كانوا فيها لتدارك الموقف، هذا يُحضر وتدا، وذاك يمسك بعض الأغراض، وآخر يحرس الأطفال، لكن في أقل من ربع ساعة كانت الجارات تجتمع عندنا هذه آتية بمخيط، والأخرى بالأسلاك، وثالثة بقطعة قماش، وفي لمح البصر جروا الخيمة، وأعادوها إلى مكانها وأخذوا في رتق ما تخرب، ولم تمض أربعون دقيقة حتى أعادوا بناءها وتنظيم ما كان بها من أثاث، وعدنا إلى جلستنا كأن شيئا لم يكن.

انقضت ليلة مُلايْ بسرعة لم يتوقعها، لأنه اضطر للعودة إلى أوراقه حتى يتمم ما كان عنده من عمل غير قابل للتأجيل، فألحق ما بقي من ليله مع النهار القادم حتى أزفت ساعة الاجتماع المقررة في إدارة الحملة الصيفية بمكتب الوالي، فانطلق مسرعا وهو يأمل أن يتأجل الاجتماع أو أن لا يطول، سلّم الأوراق لموظفة استقبلته باسمة وأخبرته أن الوالي ورئيس الحملة الصيفية دعتهما اللجنة الوطنية في الرابوني، مما يستدعي تأجيل الاجتماع حتى يعودا، لم يصدق ما سمعته أذناه، فالتفت إلى الموظفة وكأنه يراها للمرة الأولى، فوجدها شابة، قصيرة القامة ممتلئة الجسم، تجلس خلف آلة راقمة، وتتجنب النظر إلى وجهه مباشرة، لكنه لاحظ أن ذلك مصطنع أو غير طبيعي، فسألها من أي مخيم أنت فقالت من الدشيرة، فردّ عليها، وأنا ذاهب إلى هناك، ثم ودّعها وخرج متجها إلى خيمة أهل المعلومة التي وجدها ترتب الخيمة وحيدة، سلم عليها ودخل، رحبت به، وهيأت له فراشا للجلوس، وبدأت تعد العدة لتحضير الشاي، سألها عن أبويها، فأخبرته أن أباها يتولى الإشراف على الكتّاب القرآني في المخيم، أما أمها فقد ذهبت لزيارة شقيقة لها في مخيم الدورة، وأنتِ، سألها، ماذا تفعلين؟ أُحَضّرُ لك الشاي والشراب، أجابته ضاحكة، ودخلا في حديث أخبرها من خلاله أنه لم ينم طوال الليل، لماذا؟ استفسرت ... فروى لها تفاصيل ليلته حتى أحلامه، وختم بما كان من منّة، ومريضتها.

. الناس هنا متكافلون مع بعضهم والحمد لله، البارحة كانت جارتي الممرضة تعلم جمعاً من النساء كيفية طهْو الفول، وحين سألتها عن النتيجة، أجابت، لا تتعجلي يا المعلومة، سيأتي دورك في ذلك، نحن هنا كنا نُعَلّمُ الكثير من الأمهات كيف يُنَظِّمْنَ وجبات أبنائهن لضمان تغذية متكاملة، فالبعض لم ير العدس أو الفاصولياء قبل مجيئه إلى هنا.

ـ صحيح، قال مُلايْ، أنا شاهدت ذلك في سنوات سابقة، وأعرف بعض من يكرهون السمك لرائحته، والطعام لدى العامة لا يأخذ تلك الأهمية التي ربما تجدينها في مجتمعات أخرى، ورغم أنه لا حياة بدونه، لكن تعرفين أن من يظهر رغبة علنية في الطعام، أو من يعلن شكواه من الجوع، يوصف بأنه شره، أو أن عقله في بطنه، وتكثر الإشاعات حوله وتطلق عليه النعوت السيئة.

. ضحكت المعلومة، وقالت: وأين الطريق إلى قلوبكم إذن؟

. لا أدري، ردّ مُلايْ باسماً، قد تكون همسة، أو ابتسامة، أو كلمة، أو موقف.. المؤكد، وسكت قليلا يفكر، ثم أضاف: سؤال كان يستحق أن يخصص له بحث من بحوث برامج الصيف..

بدأ الاستعداد للمهرجان الختامي للصائفة ينشر ظلاله في كل مكان، وبقدر اقترابه كان الوقت يضيق على مُلايْ ويزداد توتره لأن أمره مع المعلومة لم يرس على برٍّ بعد، كان يعبّر عن ذلك لأخته في كل مرة تسأله عن موعد الفرح؟ وكان يجيبها نحتاج إلى مزيد من الوقت، وفي إحدى المرات ثارت ثائرتها، وصرخت في وجهه محتجة، ما هذا التأخر؟ ألم تقل لي إنك تجد لدى المرأة تقبلا وارتياحاً؟ ألم تصارحها بعد؟ هل تخشى الرفض؟ أم أن المقاتل الشجاع الذي عُرف بتحدي أهوال المعارك لا يجرؤ على مصارحة امرأة بحقيقة مشاعره؟ تحمّل مُلايْ كل كلام أخته برحابة صدر، لأنه كان على يقين من حبها له، وأن ما يفقدها صوابها ليس غير ما يقلقه هو بالذات، فأخذ يدها برفق، وقال لها: أي منّة، أنسيت أن النفس لا تذل إلا لمن تهوى؟ في تلك اللحظة دخل موسى قلقاً على غير عادته ونظر إلى مُلايْ، وقال: أنت هنا جالس "ولغزيل ولّى صوف"، فالتفت إليه منّة، وسألته، ما ذا تعني بقولك هذا يا موسى؟ فأخبرها أنه كان بمخيم الدشيرة الذي تسكنه المعلومة، وأنه رأى ثلاث سيارات عند أهلها، فجرّه فضوله لمعرفة ماذا هناك، وحين اقترب منهم، التبس عليه الأمر، حيث ظن أن مُلايْ سيتزوج في تلك الليلة، لكن، يقول موسى، حين تبينتُ أن مُلايْ لم يكن موجوداً ولا أي أحد منكم، هرعتُ إلى خيمة الممرضة وسألتها عما يجري، فأخبرتني أن واحدة من تلك السيارات لوزير جاء يخطب المعلومة، وأن أمّها وافقت، لكن أباها ربط الأمر بموافقتها هي، فسألتُها عن موقف المعلومة، فقالت: إنها لم ترها منذ ثلاثة أيام، لأن خالة لها قدِمتْ من مخيم السمارة، ولا تفارقها ليلا أو نهاراً.

جُنَّ جنون مُلايْ، والتفت إلى موسى غاضباً، أنت لا تأتي إلا بالأخبار السيئة دائماً، ألم أمنعك من المزاح بمثل هذه الأمور؟ أم أنك تريد إغضابي، أنا أعرف المعلومة، ولا أخشى مما قلت، لأنها صاحبة موقف. لكن منّة كان لها رأي آخر، إذ قالت: مهما كان رأيك بالمعلومة، لا تنس أن الأمر ليس بيدها وحدها، وأن للأهل والمعارف وسائل ضغطهم المتنوعة، لماذا لا تذهبا إلى هناك لتتبينا حقيقة ما يجري؟ سأذهب أنا، تطوع موسى، وأعود إليكما بالخبر اليقين.

بقي مُلايْ في بيت أخته منتظراً عودة صديقه موسى، محاولاً بسط مظهر من الهدوء والطمأنينة حتى لا يشغل شقيقته بما كان يستعر بين جوانحه من حمم لا يدري هل هي الغيرة من الخاطب المجهول رغم قول موسى إنه وزير، أو هو الخوف من فقدان المعلومة من جديد، قدّم عدّة الشاي، ثم أزاحها من أمامه، استخرج أدوات حلاقته وأعادها إلى مكانها، نهض خارجاً وجلب الماء من بئر قريبة من الخيمة، جلس قليلا في منتصف الخيمة على وسادة زرقاء ثم افتعل عذراً للخروج بعد أن طلب من أخته أن تنتظره على الغداء وإن جاء موسى فلينتظر هو الآخر، توجه مباشرة إلى إدارة المخيم الذي تسكن فيه أخته مستفهماً عن تطور تحضيرات المهرجان الصيفي، وما هو المطلوب منه، وبينما كان الشبان المشرفون يخبرونه هبت زوبعة رملية شديدة سببت تعطيل ما كان مقررا من برامج، فلم يمتعض مُلايْ لذلك، وإنما وجده نفسه يقول: رُبَّ ضارةٍ نافعة، سأستغل الفرصة لزيارة المعلومة عسى أن.. ثم خالجه شعور بالذنب، وانتقد نفسه قائلا: ألهذا السبب يقولون أن الحب أعمى؟ هل أعماني حتى حولني إلى أناني لا يفكر إلا في نفسه وفي من يحب؟ جلس قليلا على أكياس مركونة أمام مبنى إدارة المخيم، عاتب نفسه على مثل ذلك التفكير، لكنه تذكّر أن الوقت ينفذ وهو في غير صالحه، كما أن الذي جاء به موسى اليوم، جعل حالتي لا تطاق، يقول لنفسه، تقدم متجنبا بعض الحفر التي يخلفها بناء بيوت الطين الآخذة في التزايد، وتوجه نحو خيمة أهلها دون تقدير للموقف الذي قد يواجهه هناك، ودون التفكير في مسوغ لتلك الزيارة، بيد أن الحظ حالفه إذ وجدها آتية من الجهة الأخرى من المخيم وآثار التعب بادية على محياها، لكن ذلك لم يزدها إلا جمالا في عينيه وتوهجا في قلبه، سلّم عليها، وردت بابتسامتها الخجولة.. أخبرته أنها كانت تزور جارة مريضة. وطلبت منه أن ينتظرها في خيمة جارتها الممرضة، لن تجد أحداً هناك لأنها اليوم تقوم بحملة تلقيح في المخيم، قالت المعلومة، جلس في ركن من الخيمة يفكر من أين سيبدأ؟ لكن المعلومة كفته عناء البحث عندما دخلت منشرحة الوجه وسألته إن كان يشكو من شيء؟ ثم أضافت: أراك واجماً قليل الكلام على غير عادتك يا مُلايْ، التفت نحوها بكامل وجهه، وبقيّ صامتاً لا يجد الجواب المناسب لسؤال هبط عليه مِنّةً من السماء، هل يتشجع ويخبرها بالذي يؤرقه، أم يتريث حتى يجد المدخل الملائم لما سيقول.. ضحكت في حيرة، وكررت السؤال: ما بك؟ هل بلغتك أخبار غير سارّة من جبهات القتال؟ هل أختك أو أحد أبنائها مريض لا قدّر الله؟ لا، قال مُلايْ في جفاف، ليتابع بسرعة، كأنما كان يخشى أن تتجمّد الكلمات في حلقه فلا تخرج، إن من يعاني هو أنا، والسبب هو أنتِ، وسأصدقكِ الحديث يا المعلومة، وأتمنى أن لا يضايقكِ ما سأقول، ثم صمت لبرهة وجيزة وهو يفكر في أول ليلة رآها فيها، وما تلا ذلك من بحث مضن، وما أخبره به موسى قبل ساعات، وأطلق زفرة عميقة ليستطرد: منذ أن رأيتكِ في عرس الجريح ذاك، أوقدتْ نظراتك المتوسلة وابتسامتك الخجولة بين جنبيّ نارا دائمة الاشتعال ما يزال لظاها يحرقني حتى هذه اللحظة، لذا لن أراوغ، وإنما سأكون مباشرا قدر ما أستطيع لإسماعكِ ما كنتُ ألحتُ إليه طيلة مدة

تعارفنا القصيرة، وسأبدأ بإعادة صياغة سؤال سبق أن طرحته عليك، هل ستبقين تعيشين في غربتك حتى وأنت بين أهلك وذويك؟ أم هناك أمل في أن تفتحي الباب الذي أوصدته على نفسك أوتتركي غيرك يفتحه لتخرجي إلى رحابة الحياة؟ خيّم الصمت من جديد لتتكلم المعلومة بجدية وبصوت هادئٍ رزين وحزين: هناك جروح لا تندمل بسرعة يا مُلايْ، أنا إنسانة لها مشاعر وقلب يخفق، رغم الألم والغربة والأحزان، هل تدري لماذا أوصدت باب قلبي وسيّجته، لأنني بين عشية وضحاها وجدت نفسي فريسةً مطاردةً تستهوي كل من ينظر إليها، اختطفت الحرب زوجي، وعمّي وأخي في ظرف أسبوع، قصمتْ ظهري، وبقيتُ أمام أبوين مفجوعين، وحماة مكلومة القلب، وأرملة أخ تعيل ثلاثة أبناء، لم أجد رجلاً مستعداً لمسح دمعة الحزن التي تطل من مقلتيّ، ولا آخر يستشعر ما أعانيه من آلام، كل ما وجدته هو من ينشر حبال وشباك الاصطياد الآثم، ولا ألوم أحداً على ذلك، صدقني يا مُلايْ، فمؤسسة شؤون الشهداء لم تتخل عنا كعائلة، والجيران آزرونا ووقفوا بجانبنا، لكن حين يسدل الليل ستاره وتنطفئ الأنوار، أجدني وحيدة أمام عائلة تحتاجني، لذا وطدت العزم على سد كل ثغرات الضعف لدرجة أنني نسيت أنوثتي، حتى لا أقول تخليت عنها لما تلاطم علي قلبي وعقلي من أمواج الهم.. سكتت تستجمع أنفاسها لتواصل: تلك الليلة التي رأيتني فيها، كانت أول وآخر مرة أذهب فيها إلى عرس، كنتُ مع زوجي الذي عاد من الموت بسبب جرح غائر كاد يقتله، وخلال إقامته بمستشفى الجرحى تعرّف على العريس الذي كان جريحا هو الآخر، وربطتهما صداقة متينة، ما أجبرنا كلانا على تلبية دعوته للحضور، لذا بدوت خجولة مستغيثة بين ذلك الحشد، والآن تأتي أنت، بنظراتك المربكة، وخلقك الرفيع، وقدرتك الفائقة على التسلل إلى الأعماق، لتنبش في أعماق الجرح، وتقدم البلسم السحري الذي لم أجده حين بحثتُ عنه، ماذا تريدني أن أقول، يا مُلايْ؟ أنا لا أتنكر لطبيعتي لكنني خائفة، هل تفهمني؟ ومم تخافين؟ قاطعها... من نفسي، قالت، ومنك، ومن الظروف المحيطة بنا، ومن كل ما هو حولي، لا أريد أن أعيش لحظة واحدة من لحظات الخوف من المجهول، وترقب غد لا أدري ما قد يحمل.. وأتساءل هل بعد كل ما تحدثنا عنه ما زلتَ ترى أنني أمتلك القدرة على العطاء بعد الأخذ؟

كان انفعالها شديداً ومؤثراً لدرجة أنه لم يقوَ على أخذ دوره في الكلام، الأمر الذي فهمته المعلومة بأنه تردد في موقفه أو تحرج من التزامه، فقالت له: لا بأس عليك يا مُلايْ، أنا وأنت بتنا على درجة من الثقة تمكننا من المصارحة دون تلكؤ، أعلم أنني تنقصني بعض المواصفات التي تبحث عنها، فأنا أرملة، و... اصمتي أرجوك، قال لها قبل أن تكمل، أنا لم أفكر أبداً في الذي ظننت، أنا سكت لأن كلامك وأسئلتك جعلتني أراجع حياتي كلها في لحظة، وأكتشف أنني لم أتعرّف عليك قبل الآن، مما يضعني أمام مسؤولية فريدة، وإني لأعيد عليك السؤال: هل بعد كل ما عرفته عني ترينني أهلا لما أطلب؟ من جهتي أقول نعم، بل أكثر من ذلك، أنا أصر على أننا باقتراننا سنحقق حُلماً يتبدّدُ معه كل ما يعتريك من هواجس الشك والتردد أياً كان

مصدرها، أما ما حاولتِ التلميح إليه قبل قليلٍ، فتلك أمور لا تعنيني في شيء، قال ذلك ونظر في عينيها مباشرة ليستطرد: أنا أرى الزواج علاقة تنصهر فيها الآمال والرؤى والمطامح في تمازج يمكن الفراشتين من التحليق سوياً في مروج ورياض غناء مليئة بالورود وضحكات الأطفال، وهذا لا يعني أنني لا أهتم بالجسد أو المظهر العام للمرأة، لا، ولكن قناعتي العميقة ترفض النظر إليها على أنها مادة للاستهلاك يجب فحصها للتأكد هل هي أصلية أو تقليد، أو إن كان سبق استعمالها أم ما تزال مختومة؟ ثقي بأن زواجنا هو الخيار الأنسب لقطع دابر الخوف والقلق والحيرة والتقدم بثبات على درب السعادة التي يحدوني أمل مفعم بالإيمان أنك لم تفقدي ثقتك في إمكانية تحقيقها.

كانت ليلةً ليلاء طويلة غابا فيها عن انشغالات البرنامج الصيفي، وهواجس الفراق، ورهبة التردد، إذ انفتحت أبواب الأمل بمستقبل طالما تمناه كل واحد منهما، تباعدت الآراء وتباينت لتشق طريق التلاقي الصعبة، مستنجدة بمعاول الأمل لتؤسس بنيانا لا يتأثر بعواصف الرمل، يغوص أساسه في تلك الأرض الفولاذية التي بني عليها المخيم ذاته. بسطت هي كل هواجسها وشكوكها، بدءاً من تخوفها من ارتباطها بصورة يظنها قائمة في مخيلته هو، وقد يكتشف أنها غير ذلك، أو قد يخيب ظنه حين يبلغ الوصل بينهما درجة أعلى من الخيال الذي يسري، لكنه أقنعها بأنهما في الخوف والهوى سواء، ولا وصفة لتجاوز ذلك إلا بالحب، لأنه أمان من كل خوف، وإذا كنت مقتنعة وراضية فلا داعي لأن تقلقي أيتها المعلومة، فعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ كما يقولون... هكذا ختم.

افترقا بعد الاتفاق على أن تتولى هي إبلاغ أهلها فيما ينتظر هو يومين أو ثلاثة حتى تعطيه إشارة التقدم، لمحت دون تفصيل إلى ما تتعرض له من ضغوط، وتقدم خاطبين غيره، مكتفية بقول: عليك أن تتحلى بالصبر، هناك عقبات لا بد من تذليلها، وأبي لا يقطع أمرا دون الحصول على موافقة كل الذين يهتم لأمرهم. عقبات مثل ماذا؟ وبمن يهتم أبوك؟ سألها. العقبات جمّة، قالت له، هناك غيرك، ويريد مثلما تريد، وقد جنّد معه بعض الأقارب المؤثرين، مثل عمي الأكبر، وهذا بدوي يتنقل خلف إبله لا نراه إلا مرة أو مرتين في السنة، وهناك جدتي المقيمة في ولاية الداخلة. امتعض مُلايْ من ذلك وقطّب حاجبيه ليرد بانفعال: لكن.. منِ الحاسمُ في كل هذا؟ صَدَقَ موسى إذن؟ ثم التفت إليها وقال: وهذا سيتطلب وقتا لا نمتلكه؟ ضحكت المعلومة من موقفه القلق، وقالت: ثق بي، ولا تتعجل، فقط أريد أن لا تُخرج الأمور عن مجراها الطبيعي فللمجتمع تقاليده وعاداته ومن المستحيل بل من المعيب تجاوزها.

يومٌ، ثم يومان بعده دون أن تُطْلق المعلومة عامود الدخان المرتقب، تعاظمت مخاوف مُلايْ، وازداد قلقه، يذرع بيت أخته جيئة وذهابا، يقرر فجأة أن يسافر إلى المركز الخلفي لناحيته العسكرية، ولكن ماذا سأقول لهم يسأل نفسه، ثم يَعْدِلُ عن الفكرة، يحضّر عُدّةَ الشاي ثم يعيدها إلى مكانها، ليخرج ويدخل حتى

أقلق أخته منّة التي اقترحت عليه: لماذا لا تذهب إلى جارتها المرضة؟ قد تجد هناك ما يطمئنك بل ما يطمئننا جميعاً، لأنه ليس فرحك وحدك بل هو فرحي وفرح عائلتي وأنت تعرف ذلك. استحسن الاقتراح وذهب من وقته ميمماً بيت الممرضة جارة المعلومة التي وجدها تَكْنُسُ محيط خيمتها، وتجمع ما تراكَمَ من أوساخ في كيس من القماش، وتمده لرجل عَرِفَ مُلايْ أنه أحد عمال النظافة خاصة لما رأى شاحنة نقل القمامة تقف في منتصف الحي، رحبت به وطلبت منه الدخول، قائلة: سألحق بك في الحال، ولما أقبلت أخبرته وهي تبتسم ابتسامة خبث، أنها بعثت من يطلب المعلومة. وسْوس لملايْ شيطان عجلته أن تلك الابتسامة إنما تدل على فشل ذريع، كأن الممرضة أرادت أن تقول من خلالها، لقد تأخرت أيها المعتوه.. لاح له شبح المعلومة من فتحة الخيمة الخلفية قادمة تتهادى في مشيتها التي تسلب لبه كلما رآها، لكن في تلك اللحظة فكر أنه يراها لأول مرة، حاول أن يقرأ عن بعد قسمات وجهها علّه يجد فيها ما يطمئنه، بيد أن قلقه وغمز الممرضة التي تلمح إلى أنه والمعلومة يبرمان أمراً في السر، حالا دون ما يريد. دخلت المعلومة، بعد أن سلّمت على جارتها بالباب وأرسلت لملايْ بسمة خجولة تعرف أنها تطمئنه، قبل أن تطلعه على الخبر السار الذي أجلته حتى خرجت تودّعه، حينها بادرته معاتبة، تبدو واثقا من تحقيق مبتغاك يا عزيزي؟ لماذا غبت عنا ثلاثة أيام بكاملها دون أن نرى لك طيفاً؟

نظر إليها مستغرباً، ثم قال: ألم تكوني أنتِ من طلب مني تعلّم الصبر وحددتِ مدة الأيام الثلاثة ؟ ماذا بك أيتها المعلومة؟

. لا شيء، قالت: فقط كنت أنتظر منك حضورا أقوى، ولهفة أكبر، حتى وإن لم يتحقق ما نريد، تبقى لقاءاتنا وبحثنا عن مخرج، ألا ترى أنك تركتني وحيدة في المعركة؟

. انفعل مُلايْ ورد بغضب، هل أفهم أن أهلك لم يوافقوا أو بالأحرى أنك لم تقنعيهم برأيك؟ أو أنهم اختاروا الوزير؟

. انفجرت ضاحكة من غضبه، وهمست: هدئ من روعك، هل تعلم أنك تبدو وسيما حين تغضب؟

. نظر إليها في حيرة، وقال: تعلمين متى ستكتمل وسامتي.

ردت عليه بابتسامة حين علمت أن غضبه بدأ يهدأ، وقالت: ما جزاء من ينقل إليك خبراً مفرحاً؟

. إذا كان ما أنتظر، أضع حياتي بين يديه يفعل بها ما يشاء. قال بحزم.

. الحمد لله على أنني أنا من ينقل إليك خبر موافقة أهلي حتى لا تعطي حياتك لغيري، قالت مازحة، لتواصل: دارت معركة حامية الوطيس بين أنصارنا وأنصار خصومنا، وجمع كل فريق ما استطاع من مؤيدين، ورغم قلة حظوظنا كان الفوز في النهاية إلى جانبنا، أتدري لماذا؟ لأنني حاربت بشراسة من أجل ما أراه حقاً شخصياً لا أقبل أن يقرر غيري فيه نيابة عنّي، ويجب أن نحفظ لتلك الممرضة ، وأشارت بيدها نحو الخيمة التي

خرجا منها قبل قليل، موقفها المشرف الذي آزرتنا به لأنها تحملت برحابة صدر وقاحة بعض الأقارب، وكانت قناة البريد المأمون بيني وبين والدي على الخصوص، ثم همست بالقرب من أذنه، لقد انتصرنا، وانسحب الخصوم يجرون أذيال الهزيمة بمن فيهم الوزير، بعد أن أقرني أهلي على رأيي.

خفق قلب مُلايْ بسرعة أصمّت أذنيه، لم يجد جوابا مناسباً، حدّق بعينيه الواسعتين في المعلومة، حاول أن يضمّها، لكنها نبّهته أنهما لم يتزوجا بعد، وأنهما في الشارع، متى؟ قال لها، متى أبعث بأختي منّة لتحديد موعد الزواج؟ اهدأ، ولا تتعجل، قالت له، فكما توقعت، اشترط أبي أن يأخذ برأي أخيه الأكبر، وكذلك حضور الجدة.

ثمانية أيام تطلبها إحضار عمّ المعلومة وجدّتها لتبدأ المشاورات العائلية في ليلة اليوم التاسع، حركة دائبة من وإلى خيمة أهل المعلومة، فيما تحاول الممرضة تهدئة مُلايْ وطمأنته.. تارة تناوله كوب شاي، وتارة تخرج لتعود فتنبئه عن مدى تقدم المفاوضات، يبدو أن عم المعلومة مازال متلكئاً، ويصر على معرفة قبيلة الخطيب، ومركزه الاجتماعي، ويسأل عن عائلته المباشرة، شرحت الممرضة، بيد أن الذين حوله وأولهم موسى استنكروا عليه ذلك بشدة ونبّهوه إلى أن القبلية مفهوم قديم يتنافى مع طموحات مجتمع كالذي نبني، ويكفي الرجل من التعريف أنه مقاتل شهم تشهد له ناحيته العسكرية بالإقدام، كما تشهد له الولاية بالتواضع، والعفة، ونبل الأخلاق، وسمعته يقول: مهما قلتم لن أتزحزح من مكاني حتى تخبروني عن نسب الرجل، وإذا سألتني رأيي تقول الممرضة لملايْ، لا أرى مانعاً من إخباره بما يريد، رأي من هنا ورأي من هناك حتى توصلوا إلى إجماع لم يعقه إلا تصميم الجدة على إدراج شرط لا سابقة ولا لاحقة في عقد الزواج، وحين احتج موسى بصفته وكيلاً عن الزوج بأن المهر ربع دينار وأن ذلك لا يبيح ما تتنازل عنه الزوجة مقابل الشرط المطلوب، تصدت له منّة شقيقة العريس قائلة: وإن يكن، اعتبره يا أخي هديةً يتشرف العريس بتقديمها لعروسه وأهلها.

انطلقت زغرودة البشرى معلنة نجاح مفاوضات الخطوبة العسيرة التي دامت أكثر من ست ساعات وتكللت بإبرام عقد الزواج حوالي الساعة الثانية فجراً، تكفلت مديرية القضاء بكل المصاريف المترتبة على الحفل كما يلزم القانون، كان فرحاً مشهوداً رغم تواضعه، أحيته فرق المخيمات الست المكونة لولاية العيون، وتهاطل عليه الطلبة والتلاميذ كون مُلايْ صديقهم الذي تعرفوا عليه في حملة الصيف ولأن العروس هي من حازت على جائزة وشهادة أفضل مربية خلال السنة المنصرمة.

جلس مُلايْ وسط خيمته فرِحاً بما تحقق له من سعادة ويتمنى في قرارة نفسه أن تكون زوجته كذلك، قرّب الطّبلة منه وبدأ يصفُّ أكواب الشاي منتشياً، ويفكر لقد صدق من قال إن الشاي ملجأ في فنجان، أخذ كمية من الشاي في يده من علبة صغيرة كتب عليها شاي الصين الأخضر، تأملها ملياً قبل أن يضعها في كوب زجاجي لتحديد الكمية اللازمة لإعداد شاي لاثنين، في انتظار أن يغلي إبريق الماء، فكر في الشاي

وحضوره في كل المناسبات سواء كانت أفراحاً أو أتراحاً، وكونه مشروباً أوحدَ تجتمع حوله العائلة، ويُكرّم به الضيف، وتحلو به المسامرة، لما يوفره أحياناً من جلسات أنس ولهو، خاصة الشاي الذهبي الخاص بالمساء، ذلك الوقت المستقطع بين الجِدِّ والمتعة أو لحظة الوصال تلك، التي تحاول إيقاف الشمس حيناً قبل أن يُغيّب الغسق وجه الحبيب لإبعاد الرِّيبَةِ عن اللقاء، إنها لحظة تُعادل بامتياز كل حفلات تشانويو اليابانية الشهيرة*.

نبّهه انسكاب الماء على النار فالتفت مبتسماً، وقال لكنها اليوم صباحية، دخلت زوجته حاملة وجبة فطور أعدتها من الخبز والزبدة والمربى وقدحاً من الحليب الجاف الممزوج بالماء والسكر، ساعدها في ترتيب ما أحضرت، ثم ناولها كوب الشاي الأول، وقال لها: تعمدت الإكثار من السكر آملا أن تكون حياتنا كذلك عكس ما يقال أن الكوب الأولى مرة كالحياة، راحا يتناولان فطورهما في حبور بعد أن أعاد مُلايْ إبريق الشاي الأخضر إلى موقد الغاز الصغير قائلا: وها هي كأس الحب قادمة، أثار انتباههما نداء مكبرات الصوت تطلب تجمع المقاتلين، فانقبضت أسارير المعلومة واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم، كأنما سيطرت عليها لحظة يأس أو عاودها كابوس قديم، لكنه طمأنها قائلا لا بأس، لقد أراد الجيش أن يمدد جلسة شاينا في لحظة الحب، بدل أن نشرب الأخيرة الثالثة التي تعرفين أنها تمثل النهاية، سأذهب لأرى ماذا هناك وأعود إليك، خرج مسرعاً ولم يعد حتى وقت متأخر من الليل مما اضطر المعلومة أن تنام عند أهلها، فتسلل محاولا أن لا يوقظ أبويها، ولما وقف قرب باب بيتهم، وقبل أن يأتي بأي حركة قد تصدر صوتاً وجدها منتصبة كأنما شعرت به روحها قبل أذنيها، فتعانقا وذهبا إلى خيمتهما دون أن ينتبها إلى أنها مشت وهي حافية القدمين، أوقدت مصباح الغاز، وتعانقا من جديد ثم جلسا ليخبرها أن النداء لم يكن عاماً، لكنه اضطر للبقاء حتى يمدد فترة إجازته، وهذا معناه أنني لن أغادر قبل أن تعودي إلى ليبيا، طمأنها.



بعد أسبوع أُعلنت نتائج المسابقة الصيفية، وحلّت ولاية العيون في المرتبة الثانية بعد السمارة التي فازت بالجائزة الكبرى في ليلة شهدت سهرة غناء ورقص وتقديم للجوائز حسب محاور برنامج العمل، ذكرت تلك الليلة مُلايْ بمصادفة لقائه مع المعلومة، وما تلا ذلك من أحداث تضافرت كلها لتضعه على سكة سعادة بات يخاف منها ويخاف عليها، لكن المعلومة كانت تشعر بتوترٍ متزايد كلما قَرُبَ وقتُ السفر، وتنظر إلى زوجها وتبتسم ابتسامة قلق، وتفكّر دون أن تقول له: يبدو أننا خُلقنا لنفترق، أو أن هذه الأرض هي أرض الفراق، لأننا وإن اجتمع شملنا في هذه الهنيهة المختلسة بالرغم من أنف الزمن فإن دروبنا متباعدة، لماذا انتهى هذا الصيف بسرعة أكبر من سابقيه؟ ربّاه، أنا أعرف أنه لا يحق لي أن أذرف دمعة واحدة في العلن على الأقل، ثم أرخت العنان لنفسها وهي تتساءل لماذا أنا مشوشة ومرتبكة، لم يمض إلا عشرون يوماً على زواجنا وها نحن نفترق ... ثم تعاودها مخاوفها القديمة المتجددة، مما يمنعها من إجراء حديث متواصل، أو الإحاطة بفكرة محددة، فتحاول تجنب ذكر القتال والجيش، وتتعمد تناسي المخاطر التي تعرف أنها محدقة بزوجها، باحثة عن

عزاء لا تجده إلا في إدراكها أنها لن تكون الوحيدة التي ستتجرع ألم الفراق، لن تكون الأمهات أفضل حالاً مني، تقول في صمتها، والطلبة والتلاميذ الذين سيعودون إلى أماكن دراستهم، إنه يوم

---

* تشانويو: حفلات الشاي اليابانية الرسمية

البكاء الذي لا مفر منه، دموع أمهات يودعن أبناءهن، ودموع إخوة يفترقون، ومُلايْ، كيف سيكون وقع ذلك عليه؟ تتساءل، ثم تجيب نفسها نيابة عنه كأنما كانت تقرأ أفكاره، سأحدق في غراب البين المنتصب على باب الخيمة، وكم أتمنى لو كانت لديَّ القدرة على إردائه وتخليص العالم منه، تتلتفت في غير اتجاه كي لا تلتقي نظراتهما حين تدرك أن حاجز الكبرياء هو ما يحبس دموعه، خاصة وهي ترى عينيه متقدتين في التهاب وحرقة تصبغهما بلون الدم القاتم، ولسان حاله يلعن الكبرياء في صمت ويأس، لاسيما عندما يتصور وجوده بدون المعلومة، فينفر عقله بعد أن تطير روحه، أن أذهب أنا للقتال وتبقى هي في المخيمات، يقول في صمته المكابر، ذلك أمر قد أقبله، مثلها مثل أختي منّة، ولكن أن تبتعد كل هذه المسافات، أن تفصلنا حدود، وبوابات محروسة، وأن تغيب إلى مكان لا تصل منه حتى الرسائل غير المغلّفة!! فذلك هو الموت بعينه، وحين يتأهب للبوح بذلك، أو للتعبير عن اعتراضه على سفرها، تمثل أمام عينيه مسؤولياتها وأنها حازت على شهادة تقدير وأن الطالبات في حاجة إليها، فتهدأ ثائرته ويركن مستسلماً لمتطلباتِ ظرفٍ يعلم أن سمته الأساسية هي التضحية بعزيز الأشياء من أجل الأعز.

استقبله رفاقه كبطل عائد بنصر كبير من معركة ميؤوس منها، هذا يبارك له، وآخر ينطحه (عادة صحراوية قديمة يقوم بها غير المتزوج أملاً في أن يكون هو اللاحق)، وأقرب المقربين يقول: عملتها يا بطل، حققت الحلم الذي أرقك، كنا نعلم أن مرضك ليس علة جسد وإنما هو انشغال بصاحبة النظرة المستغيثة.

استعاد حيويته وفعاليته العسكرية المعهودة، وانخرط بكليته في مهامه مضاعفا نشاطه كأنما تفجرت ينابيع حماسة كانت مكبوتة في داخله، أو أزيل ستار عن جوانب إبداع أوجدت لها سعادته طريقا للتعبير عن ذاتها، مما أفسح المجال لتعليقات رفاقه بقول بعضهم إنه يقضي دَيْنَ الغياب الطويل عن مكان عمله، ليجيبه آخر بل إنه يتعمد إشغال باله بأمور العمل حتى لا يفكر في المعلومة. دارت معارك هنا وهناك على طول الصحراء وعرضها، وتطور القتال من بساطة حرب العصابات إلى قتال تتداخل وتمتزج فيه كل أساليب الحرب الأخرى، وأظهر مُلايْ بسالة وإقداما كسابق عهده، كان في كل مرة يعود فيها سالما من معركة، يقول: لا تخافي يا عزيزتي، إن من يريد الحياة يجب أن يبحث عن الموت، وأفضل طريقة للدفاع هي أن نهجم ليس على العدو فحسب، بل وعلى الموت في عقر داره، لم يفكر يوما في العودة إلى المخيم قبل أن تعود زوجته التي يتذكر أنه تواعد معها في أول عطلة، أي مع مطلع العام القادم، حين أخذها صباح يوم الفراق في سيارته العسكرية

ليوصلها إلى مقر الحافلات، وودّعها مثل ما ودّع الكثير من أصدقاء الصيف، ثم انطلق مباشرة صوب خيمة أخته يودّعها هي الأخرى، وجد في تلة صغيرة قرب مركزه العسكري مؤنسا يلجأ إليه كلما سنحت له الفرصة، وفي مساء أحد الأيام اقترب منه موسى حين رآه جالسا على قمة التلة وسأله، ماذا تفعل هنا وحدك؟ رد عليه بإيماءة من عينيه، فنتبع موسى الاتجاه الذي أشار إليه مُلايْ، ليلحظ أنه قد رسم اسمه واسم زوجته على شكل بديع بأحجار صغيرة مختلفة الأوان وأحاط الاسمين بمستطيل من الخارج، فالتفت إليه متعجباً وسأله: ألهذه الدرجة تحبها؟ فقال مُلايْ: قد لا تصدق يا موسى، لكنني قادر على التعرف إليها من بين ألف امرأة، نعم، قال موسى هازئاً ليواصل: وكيف ذلك؟ فأشار مُلايْ إلى قلبه وقال: لأن هذا يراها قبل أن تُبصرها عيناي، ويخفق بل يهتز حتى يجعلني أدرك أنها موجودة في هذا الجمع أو ذاك.

جلست المعلومة في مؤخرة الطائرة العسكرية التي تنقل الطلبة إلى ليبيا مكتئبة لما عاودها من كوابيس الحرب والموت والترمل من جديد، حاولت إبعاد تلك الوساوس طيلة الشهرين الأولين من وصولها إلى مركز الزهراء للبنات في مدينة الزاوية، بالتفكير في الطالبات اللائي يهرعن إليها في كل أمر، وأحياناً بالتجول بين أقسام المركز ووسط باحته الرملية، مرة تحادث طبّاخاً سودانياً، ومرة تثرثر مع مشرفة ليبية ظريفة تجاوزت سن الزواج "العربي"، وثالثة تشكو لزميلة صحراوية قديمة قدم المركز نفسه، حاولوا أن يقيموا لها حفلا بمناسبة زواجها، لكنها رفضت متحججة بتوعك صحتها وأن الظرف غير مناسب، لكنها فوجئت بأمر غيّر مجرى حياتها، عندما قال لها الطبيب المصري: مبروك يا هانم، وحين سألت على ماذا؟ ابتسم، وقال: أنت حامل، فوضعت يدها على بطنها بحركة آلية لكنها استرجعت تماسكها بسرعة حين تذكرت أن جنيناً ينمو في أحشائها، مما زادها ألماً على ألمٍ، إذ كانت تناجيه وتقول له في حلكة الليل في غرفة نومها المنفردة، لا أدري يا صغيري هل مكتوب لنا أن نسعد أو أن نشقى، بل ليتني أعرف إذا كنت سأفرح بك أو سآسف عليك، صدقني، أنا في حيرة من أمري، لو تعلم ما مررت به من شقاء قبل أبيك، لكنني كنت وحدي ولم أجن بذلك على أحد، أما الآن وأنت قادم، ماذا سأقول لك إن قدّر الله وعاد القدر .. ثم تصمت خشية أن تجلب كلماتها طالع سوء تخاف ذكره وتتحاشى التفكير فيه.. كتبت رسالة إلى مُلايْ تطمئنه كذباً على حالها، وأخبرته أنها حصلت على بعض الكتب التي كان يبحث عنها، وأنها قد تضطر إلى المجيء قبل الموعد لأن ظروفها الصحية الخاصة (إشارة متعارف عليها اجتماعياً وتعني الحمل) قد تتطلب ذلك.

بني مستشفى الشهيد بلاّ العسكري في مكان عرف باسم الرويظة (تصغير اسم روضة) بين هضبتين تجعلان المكان يبدو وكأنه قوس بلا وتر، أرضه رملية صلبة، ولونها يميل إلى الصفرة، مع ما يخالطها من خيوط الرمال الناعمة، خُصِّص في بداية إنشائه لاستقبال مرضى الجيش، ثم تطورت مهامه فيما بعد ليصبح مجمّعاً طبياً للعديد من التخصصات، كما عمل به متعاونون أجانب كثر بالإضافة إلى ما التحق به من الأطباء

الصحراويين الذين تلاحقت دفعاتهم تتخرج من مختلف جامعات العالم. سبق لملايْ أن كان من نزلائه في الماضي، لكنه هذه المرة لم يدرك أنه عاد إليه إلا بعد انقضاء ثلاثة أسابيع، حين خرج من غيبوبته، من الجرح البليغ الذي أصابه من شظية قذيفة مدفع عيار 155 ميليمتر، انغرزت في قفصه الصدري عندما كان يحاول اعتلاء دبابة معادية بعد أن اقتحمها هو وثلاثة من رفاقه من بينهم موسى. أول ما فتح عينيه وجد أخته منّة جالسة عند رأسه وبيدها منشفة بيضاء تجفف بها العرق عن جبينه، فابتسم لها وقال: مرحبا أيتها العجوز، كيف حال الجمهورية؟ صرخت هي من الفرح، وانفجرت باكية. وأين موسى؟ سألها، كان جرحه بسيطاً، شظية من قنبلة عنقودية، ردّت منّة، وقد سمح له الطبيب بالخروج لزيارة عائلته ليطمئنهم ويطمئن عليهم، على أن يعود في الأسبوع القادم، فابتسم مُلايْ وقال: كان على الطبيب أن لا يسمح له، فقد يتزوج من جديد، ابتسمت منّة تجاوبا مع مزاح شقيقها الذي كان يحاول التخفيف عنها.

تماطل الزوار على مُلايْ ورفاقه في فترة نقاهتهم بالمستشفى، وجاء أحدهم يوما يحمل رسالة المعلومة التي احتفظ بها آملا أن يسلمها لملايْ بعد تماثله للشفاء، ومدها له قائلا: قد تساعد هذه على التئام جراحك. تلقفها مُلايْ كما لو كان يعلم بوجودها، وسافر بين سطورها فرحا حتى وصل إلى تلميح المعلومة بتعجيل مجيئها، فأدرك المقصود فلم يتمالك أن قفز من على سريره، مما تسبب في انتكاس حالته الصحية، ولولا وجود شقيقته منّة التي كانت له بالمرصاد، لساءت حالته أكثر، التفت إليها بعد أن هدأت نوبة سعال حاد أثارتها حركاته العنيفة، وقال لها اقرأي يا منّة، اقرأي سأكون أبا عما قريب بإذن الله. ردت منّة قبل أن تتأكد من محتوى الرسالة بإطلاق زغرودة ملأت أرجاء المستشفى، ثم خرجت مسرعة وطلبت من احدهم أن يشتري لها شاة للذبح، ولما سألها عن الغرض من ذلك، أجابت: إنه نذر نذرته لله تعالى إن تعافيتَ، وقد تحقق ما طلبتُ والحمد لله، بل أكثر مما تصورت، ولذا قررت الوفاء بنذري وأن أضيف صيام ثلاثة أيام عندما أعود إلى خيمتي شكراً لله.

بقيت المعلومة في غربتها تترقب البلاغات العسكرية ولا تدري إن كانت تفرح بتقدم المعارك وانتصار القضية، أم تخاف منها، لأن ذلك يعني أن مُلايْ قد يكون من بين ما يقدم لها من قرابين، حتى جاء يوم الشؤم الذي تلقت فيه خبر إصابة زوجها، وانه قد لا يعيش، اهتزّ كيانها من أخمص قدميها حتى رأسها من هول ما سمعت، ولولا الحياء وتذكرها أنها حامل لوقعت على الأرض مغمياً عليها، ورغم تماسكها الظاهري اضطرت لزيارة الطبيب حتى تطمئن على جنينها، بيد أن الصدمة لم تمر بسلام كما تمنت المعلومة، إذ لازمها شحوب في الوجه ما لبث أن انعكس إلى أعراض إرهاق جعلها منهكة وخائرة القوى مما استلزم نقلها إلى المستشفى ليجبرها الطبيب على البقاء تحت الرقابة لأجل غير محدد، تعلمت خلال ذلك كيف تسيطر على هواجسها بتلاوة القرآن، لكن الذي عجزت عنه هو استحضار البسمة إلى وجهها حتى ولو من باب مجاملة

عُوّادها، إلى أن أقبل عليها المدير ذات صباح يسألها متى تظنين أنك قادرة على السفر، قد يكون مُلايْ في حاجة إليك، وكذا أهلك. تلقت الخبر بفرح عارم، إذ فهمت من كلام المدير أن زوجها مازال حياً، ولم تصدق أنها عائدة بتلك السرعة، ودون أن تشعر وجدت نفسها تبتسم لأول مرة للمدير وتقول: يمكنني الخروج الآن، إذن اطلبي منهم أن يباشروا في إجراءات خروجك وغدا تغادرين في الطائرة إلى الجزائر، ومنها إلى المخيمات، ما رأيك؟ سألها المدير. نعم، نعم سأفعل إن شاء الله، ووقفت تخطو بضعف ظاهر نحو باب الغرفة باحثة عن الطبيب الذي يتولى الإشراف على أمرها.

أقيم مخيم الدشيرة على ضفاف رافد دَرَسَتْ معالمه من روافد وادي النبكة، ولولا ما شهدته المنطقة من أمطار قبل ذلك بأربع سنوات لما ميّزه أحد عما يحيط به من رمال، تنتظم أحياء المخيم على جنباته، بينما يرتفع المبنى الذي يضم معظم المرافق الأساسية للمخيم على خده الجنوبي، في حين تقف المقبرة العامة على الجهة الشمالية منه بالقرب من الطريق المؤدي إلى المزرعة الرئيسية للولاية التي أقيمت شرق المخيم في وادي الشق الذي توجد به مقبرة شهداء من عهد مقاومة الاستعمار الفرنسي، ورغم أن مخيم الدشيرة يحمل كل صفات مخيمات اللجوء الصحراوي، تبقى له خصوصياته المميزة التي من أهمها وجود ولي صالح، بنى غرفة ولم يفتح فيها باباً من أي جهة، وحين سئل عن ذلك، أجاب أنه ينتظر حتى يعرف إلى أين تتجه الدنيا، وظل يضع برميل ماء بجنب الحائط يستعين به للقفز إلى داخل الغرفة حتى وافاه الأجل المحتوم، كما أن أهل باقي المخيمات المكونة للولاية يطلقون على مخيم الدشيرة نكاتاً منها أنه المخيم الوحيد الذي ينام عند الثامنة مساء، حيث لا سهر ولا ضجيج فيه، لكن من يشاهده مساء مقدم الجريح مُلايْ وزوجته المعلومة اللذين تصادف مجيئهما للمخيم ينكر ذلك، بدا كأن كل لقاءات الزوجين المهمة تشترط المصادفة لتزداد حلاوة، وتشمل غيرهما ممن يهتمون لأمرهما، كانا متقاربين ومتباعدين، كل منهما ينظر إلى الآخر خلسة، وهما يستقبلان المرحبين والمرحبات بمقدمهما، جاءت منّة، وزوجها أحمد الذي يكن لمِلايْ الكثير من الحب إذ اعتبره دائما شقيقه الأصغر، ويعترف له بدوره في تثبيت دعائم زواجه من منّة التي كثيرا ما وسوس لها الواشون أن زوجها يتردد على بعض زميلاته في المهنة خلال فترات غيابه للعمل في مخيمات أخرى، كما أن مُلايْ يعترف لأحمد بصبره وحنانه الفيّاض تجاه منّة وأبنائها، وأنه لم يبخل بما لديه، بل كثيراً ما انتقد مُلايْ أخته لتصرفها من دون علم زوجها الطيب، وجاءت سعادو فاحتضنت مُلايْ باكية، ومعتذرة أنها لم تعلم بكل ما جرى إلا منذ أسبوع وأنها لما ذهبت إلى المستشفى أخبروها أن مُلايْ خرج إلى المخيم، فطمأنها مُلايْ، وقدمها للمعلومة قائلا: هذه سعادو التي كثيراً ما حدثتك عنها، إنها بمثابة شقيقتي منّة، سلمت عليها المعلومة بود رغم أنها لم ترتح لها داخلياً، خاصة حين فكّرت، يا لغرابة هذا المجتمع، هي التي لا تمت إليه بأي صلة ولا قرابة، تستطيع احتضانه، ولا أحد يقول شيئا، أما أنا، فعلي الانتظار حتى يذهب الكل ونبقى وحدنا لأقوم بما يعلم الله أنني أتلهف شوقا

للقيام به. رويدا رويداً بدأت المعلومة تتأقلم مع وضعها الجديد، حيث استعادت صحتها الكاملة ووضعها النفسي الطبيعي كأم حامل في شهرها السابع، وزوجة جريح بالكاد بدأ يسترجع بعض قواه الجسدية، لكن فرحتها كانت بلا حدود، إذ كانت نجاة مُلايْ في حقيقتها أعجوبةً من الأعاجيب.

جاءت طفلة مُلايْ والمعلومة الأولى التي اتفقا على أن تحمل اسم منّة شقيقة مُلايْ إكراماً للحب الكبير الذي أحاطتهما به في ظروفهما الصعبة، وعيّن مُلايْ في وظيفة غير قتالية بالجيش، مما مكنه من تطوير قدراته المعرفية من خلال قراءة كل الكتب التي أحضرتها له المعلومة، ومطالعة أخرى ما فتئ أصدقاؤه الطلبة يبعثون بها إليه، مثل مقدمة ابن خلدون وغيرها كثير، دون أن يهمل أو يفقد شغفه بثقافته الإسبانية، إذ دأب على قراءة الكتب العسكرية بتلك اللغة كما عثر على رواية مائة عام من العزلة لغارثيا مركيز وعلى بعض من الأدب الروسي المترجم، وأضاف إلى كل ذلك اهتماماً متزايداً بتعلم اللغة الفرنسية حتى أصبح يتابع نشرات أخبار إذاعة فرنسا الدولية.

طريقه معروف، من خيمته إلى خيمة أخته منّة التي بدأ الشيب يغزو فوديها، توسعت عائلته مع الوقت إذ جاء الولد الثاني وأسماه الولي، ثم جاء الثالث فاختارت المعلومة أن يحمل اسم أخيها الشهيد سعيد ولم يمانع، ترافق ذلك مع إحالة مُلايْ للعمل في القطاع المدني في مديرية حديثة النشأة، تحمل اسم مديرية التعاون، لما يتقنه من لغات، لكنه اشترط قبل العمل فيها أن يكون ذلك ضمن أجل مسمى، فكان يقضي يومه في العمل وفي المساء يتوجه إلى محطة النقل ليقف في الصف منتظراً الحصول على رقم يمكنه من ركوب شاحنات النقل العمومي التي تقله إلى بيته حاملا همومه وتعبه وما تبقى من آلام جرحه الغائر لتتولى المعلومة التخفيف عنه من كل ذلك، وأحيانا يمر ببيت شقيقته ليتفقد أحوالها ويقضي معها بعض الوقت. أخبرته مرة أنه جاء من يطلب يد ابنتها شروق، فاستغرب قائلا: ألم تقولي له إن شروق ستدخل الجامعة هذا العام، وأنه قبل انتهائها من الدراسة لا مجال للحديث عن زواجها، وقبل كل شيء ما هو رأي شروق؟ أم يجب أن أذكرك بالقرار الذي يشترط موافقة البنت على الزواج؟ لا تنفعل، ردّت منّة، فأنا لم أنس ما عانته عائلة أهل الخليل المجاورة لنا، عندما أكرهوا إحدى بناتهم على الزواج من ابن عم لها، وما مثل ذلك من مأساة علمها القاصي والداني، بدءا من نشوز البنت، وما تعرضت له من الأذى المعنوي على أيدي العمات والخالات وحتى الأب، وانتهاء بالموقف الأجوف الذي أصرّ عليه الزوج بعدما يئس من قبولها به، وجاء الوسطاء من كل مكان يرغبونه في تطليقها، رفض وربط ذلك بالقول المشهور: لن يعطيها الطلاق إلا الفأس (يقصد فأس حفر القبر).

وصل مُلايْ إلى بيته منفعلا بعض الشيء، وحين سألته زوجته عن سبب ذلك أخبرها أنه بعد السنوات السبع التي عاشها في القطاع المدني بات يشعر برتابة حياة المخيمات وباحتياجه إلى استنشاق هواء ألفته رئتاه في براري الوطن، ولذا فإنه يفكر في العودة إلى الجيش، سألته وماذا تنوي أن تفعل؟ فرد عليها بأنه

ينوي الذهاب إلى وزارة الدفاع للمطالبة بذلك، استنكرت الأمر متذرّعة بصحته التي لم تعد كما كانت في السابق، ثم أردفت: أنسيت أن عطلة المدارس باتت وشيكة، وسيأتي الأطفال باحثين عنك كعادتهم، لأنك تعرف كم هم متعلقون بك خاصة منّة الصغيرة، وكذا ابنة أختك الجمهورية، وسيثقل عليهما غيابك عنهما، نظر إليها مبتسماً، وقال: وأين أنت من ذلك، ألا يثقل عليك غيابي؟ فردت عليه، والله ما وافقت على رأيك إلا إرضاء لخاطرك، ولو بقي الأمر لي ما تركتك تغيب عن عينيّ ولو للحظة، لكن يبدو أنك مللت جوارنا فأردت استنشاق الهواء.

. ويلك أيتها المعلومة، قال لها، إن هذا والله كلام كبير، ما توقعت أن أسمعه منك يوماً، خاصة وأنك تعلمين أنه بعيد جدا عن الحقيقة، لأن تلك الجذوة التي اصطليت بنارها في ليلة عرس غريب لم تخمد يوما، بل توسعت لتصبح نارا مشتعلة قد تحرق الأرض ومن عليها، ما زلت أرى الخجل في ابتسامتك، وما زلت استجيب جسدا وروحا لاستغاثة عينيك، فكيف خطر لك أن تقولي كلاما كالذي جرى على لسانك قبل قليل، هل بدر مني لا قدّر الله ما يشير إلى ذلك؟ كان واقفا على نية زيارة بعض أصدقائه، فعاد للجلوس ممتعضاً.

لم يكن ذلك إلا تأكيداً على أن الحب يدوم ما دام العتاب، لأن الأسرة لم تعرف أزمات أو مشاكل من النوع الذي يلطخ صفاء العلاقات، إذ كتب لها أن تتكامل في وقت متميز من حياة قطبيها الرئيسين، كما أن الأحداث الكبيرة التي مرت بها لم تزدها إلا تماسكا وترابطاً، في حين كانا يعلمان ما عانت منه عائلات أخرى من متاعب سببت في كثير من الأحيان شتات أسر بنيت على مشهد سرابي، سرعان ما يكتشف أحد الطرفين خداع المظاهر، وتتحول الأسرة إلى نقيض ما يفترض أن تكون، مثل ما حصل لجارتهما الممرضة التي هي أم لطفلين، تزوجت مع من توسم أهلها فيه خيراً، وقد ظنت أنها حصلت على فارس الأحلام، وسيم المظهر، ابن لعائلة محترمة، وله سمعة حسنة بين الناس، لاسيما لدى المسؤولين، خاصة أنها رأت الكثيرين منهم في الولائم التي بالغ الزوج في الإنفاق فيها إبان وبعد الزفاف، لكن لم تمض سنة على زواجهما حتى اكتشفت أنه مثلما هو لها، هو لغيرها كذلك، بل ولكل من تحمل نون النسوة، فاندلعت بينهما حرب شعواء لم تنته إلا بعد ست سنوات حين تطلقا بشق الأنفس.

لم يفت المعلومة أن زوجها منقبض النفس مما قالته، ففكرت أن تعتذر بطريقة غير مباشرة، لكن الثواني تمر، ومُلايْ لا يتكلم، وهي لا تدري من أين تبدأ، تبحث في ثنايا عقلها عله يسعفها بمخرج، فاقتربت منه دون تردد، وقالت: هل تتذكر أيام زواجنا؟ ولما رأت الحيرة في عينيه، واصلت: هل تتذكر أنني قلت لك أنها كانت معركة حامية الوطيس؟ لا، لا تتكلم، ووضعت يدها على شفتيه، لم أبالغ، حاولوا إبعادي عنك، واقترحوا عليّ الزواج من مسؤول (الوزير)، وجاءت خالتي من مخيم السمارة، وبقيت معي ثلاثة أيام بلياليها

محاولة إقناعي بالعدول عن الزواج منك، لأن الأفضل لي حسب رأيها، هو من لديه جاه، وله مستقبل، أما أنت فلم تكن إلا مقاتلا، شريفاً، نعم، ورمزاً، نعم، لكن لا إمكانيات ولا ممتلكات لديك، والأسوأ، أنك قد تستشهد وأعود للحالة التي كنت عليها، ولما رأوا تمسكي بك، جاءوا بابن عمٍّ لي، وقالوا بأن الأقربين أولى، ثم بعد ذلك أوهموني بأن أبي أعطى كلاما لمسؤول سياسي في مخيم الحكّونية، حتى أنهم باتوا ينعتونني بالمسحورة، لكنني لم أر نفسي زوجة لغيرك، أتعرف لماذا؟ لأنك مذ أن قدّمت لي الجائزة في ذلك الحفل، اخترقتني بنظرة ما زالت حتى اللحظة تذكي نار لهفتي وتعلقي بك ولم أشك يوما في حبك لي، بل كثيرا ما أجد نفسي غير قادرة على الارتقاء إلى مستوى الحب الذي ألمسه عندك إلى درجة أنني أحسد نفسي على ذلك وأحسدك أنت على إخلاصك ونقاء حبك، ومع ذلك فهم لا يتركوننا وشأننا، فحتى بعد كل هذه الأعوام، مازال هناك من يوجه اللوم لأبي لأنه زوجني لغير بني عمومته، وأنه لم يحسن الاختيار لأنك فقير.

سُرَّ مُلايْ لما سمع، ولم يعلق وإنما بقي صامتا ينظر إلى زوجه مركزا على وجهها الذي بدا وكأنه يأتي من بعيد، أو كأنها تتكلم بصوت غير صوتها لشدة انفعالها، ولما أكملت، قال لها: أنا أشكر موسى على ذلك، لأنه كان السبب في مجيئي المفاجئ يومها، ولولاه ما كنت أتيت، وسكت، ثم أردف: إليّ بعدة الشاي، وأعدي لي شراباً لأن ريقي جفَّ نيابة عنك، فضحكت، وأسرعت لتنفيذ ما طلب منها، بيد أن الطبيعة كانت تهيئ غير ما أراد مُلايْ، إذ هبت عاصفة هوجاء، وتراقصت الخيمة جيئة وذهاباً، مما اضطر المعلومة إلى العودة مسرعة، والتقطت حجراً كبيراً كانت تضعه على لَكْفَا (الساتر الخلفي للخيمة) واتجهت نحو الجهة التي انتزعت العاصفة أوتادها وقطعت الحبال التي كانت تشد الخيمة من ناحيتها، وبدأت تدق الوَتِد لتثبيته من جديد، وهُرع مُلايْ ليساعدها قدر ما يستطيع، فأمسك بالحبل يشدُّ ما تقطع منه ويعيد تثبيته في ممسك الخيمة، وعندما انتهى، قفز لناحيتها، وقال لها: أعطني المعرظ (الحجر) فهو ثقيل عليك، فرفضت قائلة، أنت لا تستطيع حمله، لا تنس جرحك، قد يعاودك الألم مرة ثانية، كانا بالكاد يسمعان بعضهما من شدة هيجان الرياح، وقوة اضطراب الخيمة، حيث بدت كسفينة تتقاذفها أمواج عاتية، كل ما فيها وما حولها مهدد، تناثر الفراش القليل وتطايرت الأواني، وشُقت الخيمة وانفتحت فيها فجوة كبيرة، امتلأت المؤن بالرمال، مثلما امتلأت عينا المعلومة بالحصى، وكذا أسنانها، وأنفها، وانكشف شعرها، لكنها بقيت صامدة تضرب الوتد تلو الآخر حتى ثبتتها، مرت العاصفة سريعة إذ لم يتجاوز وقتها نصف ساعة، لكن أضرارها كانت كبيرة، معظم جيران مُلايْ تضرروا، وجلس هو متهالكاً جنب زوجته التي تحاول شد الحبل بقوة أكبر حتى تتأكد من متانته ... قال لها: وهذه ألا أتولاّها عنكِ؟ فتنحت قليلا، وقالت: تفضل، سأذهب لأرى ماذا حل بخيمة أهلي وأعود، مرت بخيمة جارتها الممرضة لتطمئن عليها، وواصلت حتى أطلت على أبويها اللذين ألفتهما جالسين يتناولان الشاي في هدوء، فسلمت وقالت جئت أطمئن عليكما بعد العاصفة، لم يغيرا من جلستهما، ورد

الأب: لا تشغلي بالك بنا يا ابنتي ، فنحن تربينا في مثل هذه الأحوال، ولن تحركنا زوبعة صغيرة كالتي مرت الآن، عادت مسرعة صوب خيمتها فوجدت مُلايْ يرتب ما يستطيع من أثاث البيت، ويحمد الله على غياب الأطفال وإلا أصاب أحدهم مكروه، نظر إلى يديها، فلاحظ أنهما مغبرّتان، ويعلوهما احمرار من آثار شد الحبال، كما أن ما ظهر من شعرها ممتلئ هو الآخر بالرمل والحصى، رموشها مبعثرة، وحواجبها تتقاطر بالرمل، وشفاهها جافة تكدّس الرمل من حولها، وأنفاسها متقطعة من شدة التعب، فانقبضت نفسه دون أن يبدي لها ذلك، لكن المعلومة أحست بما يدور في رأسه وتعمدت التخفيف عنه فقالت: لو رأيت وجهك وأنت تطلب المعرط "الحجر"، لكنت ضحكت من نفسك، تبسم مُلايْ وردّ: صحيح، لم تشاهدي وجهك وأنت تتمسكين به وعيناك تقذف الرمال، حتى بدوت كأنك جزء من العاصفة أو أنها أتت بك من مكان بعيد... تعليقات ونكات هيأت لصفاء الأنفس حتى أصبح الحديث عاديا، إذ أخبرته بما قال لها أبوها حين ذهبت للاطمئنان على أهلها، فقال لها: هم كذلك، هؤلاء الكهول يستمدون قوتهم وصلابتهم من طبيعة هذه الأرض، ثم التفت إليها جاداً، وسألها: هل تظنين أننا، أنتِ وأنا بل وكل من هم في سننا نمتلك صبرهم وقدرتهم على التحمل.. بقي السؤال معلقا، إذ غيرت المعلومة الحديث بإخباره أن أحد أصدقائه العسكريين، قد يتزوج من جارة لهم، شابة رسبت في امتحانات الثانوية العامة وأحيلت إلى الحياة العملية مؤخراً، وحين سألها عن اسمه، قالت: ذاك الطويل المهذب، سمعتك مرة، تناديه بالملثم، وإذا كنت توافق سأستدعي الشابة لتتعرف عليها، فقد طلبت مني ذلك. في المساء أقبلت الفتاة، وكانت جميلة، وأنيقة، وتتظاهر بالخجل، لكن مُلايْ لم يرتح لها، وأخبر زوجته بعد ذهابها، أن صاحبتها لن تتزوج من الملثم، لأنني أشعر بالخبث والخيانة في عينيها، قال مُلايْ، ولما سألته زوجته بعد ذلك بأشهر، حين تبيّن أن الصبية لم تكن جادة في موقفها، وإنما كانت تمد خيوطاً أخرى، أرادت إخفاءها من خلال إعلان خطوبتها من الملثم، كيف أدركت أنها تضمر غير ما تعلن؟ ردّ: لا أدري، حين صافحتني ونظرت في عينيها، شعرت بما أخبرتك به في ذلك الوقت.



صلى مُلايْ المغرب أمام خيمته وجلس قليلا على الرمال ينظر إلى الأفق مطاردا خيوط النور الآخذة في الأفول، مع تقدم موجة الغسق البطيء، من رآه يظن أنه يراقب هلال شهر الصوم، وحين استرد بصره كان قد اتخذ قرار تأجيل طلب الرجوع إلى الجيش سنتين لاحقتين أضاف إليهما ثالثة بعد ذلك حتى ظنت المعلومة أنه قد رغب عن الفكرة، إذ كانت تراه منهمكا في مطالعاته، وعمله، دون أن يهمل شقيقته ولا بقية واجباته الاجتماعية، زيارة مريض، تفقد عائلة شهيد، مواساة حزين، وكل ما كان يقلقها هو عندما يأتي رفاقه العسكريون لزيارته، ويبدأون في استعادة ذكرياتهم المشتركة، لأن ذلك دائما يترك دوماً بصمة أسى على وجهه لا يدركها إلا هي، فتجتهد لإخراجه مما هو فيه مرة بنكتة ومرة بسؤاله عن خبر سمعته في الإذاعة، ومرة

بالحديث عن ابنة أخته الجمهورية التي تعرف أن لها مكانة خاصة في قلبه، ولم يهدأ بالها إلا حين أعلن الجيش الصحراوي وقف إطلاق النار من جانب واحد، ليفسح المجال لزيارة بعثة من الأمم المتحدة.

تتالت العطل الصيفية وبرامجها كما واظب مُلايْ على عمله في مديرية التعاون دون التخلي عن فكرة العودة إلى الجيش، لكنه لاحظ أن البرامج الصيفية بدأت تعرف نوعاً من الفتور، حيث لم يعد يرى تلك الحماسة التي كانت تعيشها المخيمات في مثل ذلك الوقت، إذ بدأت تطفو على السطح هموم وانشغالات جديدة تعبر عن نفسها بشكل مادي بحت، لم يفهما سببها ولم يشغل باله كثيرا بفهمها، لأنه فكر ربما أنا الذي ابتعدت عن تلك الأجواء، أو ربما هناك أولويات أخرى؟ أو ربما العالم من حولي تبدل؟ أيعقل أنني متأخر دائما في مجاراة الأحداث؟ أو كما أنّبني زملاء العمل في العيد الماضي، حين تباهوا أمامي بأعيادهم، ولما أخبرتهم أنني لم أشتر عيداً، ضحكوا مني وقالوا أنت ما زلت في العصر الحجري، فهل كانوا على حق؟ تساءل في صمته وهو جالس على فراش أعدته له المعلومة وسط الخيمة... أدار مفتاح الراديو وإذ بالإذاعة الوطنية الصحراوية تطلب من التلاميذ المسجلين في لوائح عطل السلام أن يلتحقوا في صباح الغد بمدرسة 9 يونيو، وتنبئ عن توأمة أحد المخيمات مع بلدية إيطالية.. ثم أدار إبرة الراديو لالتقاط إذاعة أخرى فكانت إذاعة ب ب س لندن تبث تقريرا عن الانتفاضة الفلسطينية.. فشعر بغم ويأس يسيطران عليه فبحث عن إذاعة أخرى عثر عليها بسرعة دون أن يعرف لمن هي لكنه وجدها تنقل مستجدات حرب الخليج، فامتعض وأقفل المذياع وأبعده عنه بحركة عصبية.

بعد العشاء أخبر زوجته أنه يريدها أن تستعد هي ومنّة الصغيرة لتصحباه مساء الغد إلى خيمة شقيقته منّة للمشاركة في حفلة تكريم تقام على شرف شروق لما حققته من نجاح في امتحانات البكلوريا (الثانوية)، فسألته زوجته، وماذا سنهدي للبنت في مناسبة كهذه؟ ضحك حتى استلقى على قفاه دون أن يجيب، وحين رأى الحيرة في عينيها، قال لها: لن تصدقي ما يضحكني، وسرد عليها ما جرى له مع الجمهورية الصغيرة وهو في أوج البحث عنها هي، فردت عليه بين ضحكاتها، إنها الجمهورية، تتميز دائما بخصوصيتها، ثم أردفت أتعلم أنها ذهبت منذ أسبوعين في الدفعة الأولى من المشاركين في برنامج عطل السلام؟ لا والله، قال لها، كما أن منّة وأحمد لم يقولا لي أي شيء، ربما كان يخافا ألا أوافق على ذلك، فكر في نفسه قبل أن يتمدد متثائبا وقال عليّ أن أصلّي العشاء قبل أن يغلبني النعاس.

تدبر مُلايْ أمر عودته إلى الجيش في هدوء تام متعمداً عدم تنفيذ ذلك حتى تنتهي عطلة المدارس لتعود الجمهورية، ويلتحق أبناؤه بمدارسهم، فأمضى أشهر الصيف منتظراً، يتردد بين عمله وخيمته، وبين الفينة والأخرى يذهب لزيارة شقيقته أحياناً صحبة زوجته وأحيانا بمفرده، وفي إحدى تلك الزيارات قالت له شقيقته منّة: هل تعرف يا مُلايْ أن الشقية تصل غداً؟

. تهلل وجه مُلايْ من الفرح، وقال مازحاً: لا والله؟ إذن هيئي يا منّة استقبالا يليق بمكانة الدولة. وإلا سلطت عليك لسانها الذي لا ينجو منه أحد.

عجّ المخيم بالشاحنات وبالسيارات الخفيفة، وامتلأ الجو بالزغاريد ودموع الفرح، حشود من البشر تتوافد من كل حدب وصوب تؤم موقف الشاحنات ترحيبا واحتفاء بمقدم ورود وزهرات المخيم التي أخذتها رحلة الصيف ليس إلى اليمن أو إلى الشام وإنما إلى ما وراء البحار غرباً، نداء هنا، وصراخ هناك، كل عائلة فرحة بولدها وبما يحمل من ألعاب، حتى أفرغت الشاحنات حمولاتها وعادوا أسرابا إلى بيوتهم. كان مُلايْ جالسا في سيارته يرقب المشهد ويقارن بين تلك اللحظات المليئة بالفرح وأخرى عرفها مليئة بالحزن، كلها دموع، ويفكر: يبدو أن بحر دموعنا غزير ومكتوب عليه أن لا يجف قريباً، لاسيما وأن حياتنا حُدّدت بيومين كلاهما دامع، وما بينهما تحضير لواحد منهما، أنا واثق من أن آلام الفراق ستحل محل هذه الزغاريد بعد أيام قريبة، وستشهد هذه الساحة التي لم تحدد معالمها ولا حدود اتساعها على ذلك، انتبه حين جاءت منّة وزوجها أحمد تتقدمهما الجمهورية الصغيرة، فسارع مُلايْ لاستقبالها فهرولت ملبية بذراعين مفتوحتين فحملها وصار يرحب بها ويقبلها ويتفحصها، ثم ركبوا جميعاً وتوجهوا إلى مخيم بوكراع حيث تسكن العائلة، حين أنزلها تزاحم بقية أفراد العائلة للسلام على القادمة الصغيرة، كما جاء الجيران الأقربون للترحيب بزهرة الكل، لحظة حبور وابتهاج تألقت فيها الجمهورية الطفلة كعادتها بثرثرتها، تروي لهم رحلتها بأدق التفاصيل، تصف بيت العائلة التي استضافتها طيلة مكوثها هناك، وكلبهم الكبير ذا الشعر الكثيف، كنت أخافه في البداية، قالت الجمهورية لخالها، ولكن لما تعرفت عليه وجدته لطيفا ويحب اللعب كثيراً، تزمّ شفتيها الصغيرتين لإظهار ما تعلمته من كلمات من اللغة الجديدة عليها، وتسرع لاستخراج أشرطة من جيب إحدى حقائبها، لتعلن بتعالٍ: هذه أغان لمطربين أحببتهم كثيراً، انظر يا خالي، كنا نرقص على أنغام أغانيهم في حفلاتنا الليلية. تفحص مُلايْ الأشرطة فقرأ: على الأول: الميكانو (EL MECANO) وعلى الثاني لوس بيكوس (LOS PECOS) وعلى ثالث فرقة: آلاسكا وديناراما (ALASKA Y DINARAMA)، ثم أعاد إليها الأشرطة باسماً، وقال لها: هذه تختلف عن أيامنا، فقد كنا نستمع إلى خوليو إيكليسياس، ونينو برافو، وآخرين، أنتَ كنتَ تستمع إليهم؟ قالت منّة، ضحكوا دون أن يعلق أحد على ما قيل، كانوا فرحين بمقدم صغيرتهم، الأطفال يشعرون بالغيرة، ويتمنون أن يحظوا بمثل فرصتها، والكبار مزهوون بحركات وثرثرة الطفلة القادمة من خلف البحار، التي عادت إلى حقيبتها وهي تقول: وهذه مفاجأة لك يا مُلايْ، أنظر، لقد أهدتني عائلتي (تقصد العائلة الإسبانية التي استضافتها) حقيبة مدرسية جميلة،فسألها وفي أي مدينة تسكن عائلتك؟ ردت: في سيبيّا (اشبيلية)، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها دمية شقراء، وقالت وهذه هي المفاجأة!! أتتذكر كيف كنت أبحث عنها وأنا صغيرة؟ فضمها مُلاي ْإلى صدره ضاحكاً، وقال وهل كبرت الآن أيتها الشقية؟

انقضت سهرة الاستقبال وعاد مُلايْ وعائلته إلى بيته، وفي الصباح الباكر أخبر زوجته انه قد يتغيب لأسبوعين أو ثلاثة بسبب مهمة تتعلق بالتحضير لمجيء بعثة الأمم المتحدة في منطقة ميجك.

. أليست هذه حجة تتذرع بها للعودة إلى هناك؟ سألته.

. لا، أنا فعلاً سأعود إلى هناك، لكن سيكون ذلك بمعرفتكِ وبموافقتكِ أيضاً، رد مُلايْ مبتسماً.

وقبل أن يعطيها فرصة للاحتجاج ركب سيارته وغادر متجهاً إلى مكان عمله حيث ينتظره زميلان آخران مع عدة السفر الجاهزة، لم يضيّعوا الوقت وإنما باشروا بتحميلها في السيارة، وقبل منتصف النهار كانوا قد أصبحوا داخل الحدود الصحراوية، توقفوا لتناول الشاي ولإراحة السيارة، ولم ينتبهوا حتى وجدوا أنفسهم محاطين بدورية عسكرية صحراوية، تعرّف قائدها على مُلايْ فترجّل وتبادلا عناقاً حاراً، وسأله عن حاله وعن صحته، وهل اندمل الجرح أم مازال هناك آثار منه، ثم أصرّ القائد العسكري على أن يأتي مُلايْ وزملاءه للغداء معه في مقر وحدته العسكرية، وحين دخلوا مكان ضيافة الوحدة فوجئ مُلايْ بصديقه موسى يعانقه، ويقول مرحبا بك أيها الغائب، ألا ترى أنك غبتَ عنا طويلا؟ تبادلا السلام والأخبار، ولامه مُلايْ على انقطاعه عن زيارته، ثم استدرك ضاحكاً، نسيت أنك غيّرت محلّ إقامتك مؤخراً بعد زواجك الجديد، أمازلت هناك؟ مع أبي لا أظن ذلك. ضحك موسى وقال: لا تسأل عما تعرف عن صاحبك، وإنما اسأل عما يستجد لديه. أطعموهم وجبة من الخبز بدون خميرة، شويت في حفرة رمل حامية، ولحم أرنب بريٍّ، وجبة كان مُلايْ يشتهيها منذ أكثر من عقد من الزمن، أعادت إليه الكثير من ذكريات ولّت، ومهما حاول استحضارها تتمنع كأنما يحجبها غشاء من سحب الدخان الكثيفة، من بينها صوت ذئب يعوي في ضحى أحد الأيام في وادي الساقية الحمراء، وكيف أن بعض رفاقه تشاءم من الأمر قائلا: ستُهجر هذه الأرض، ولما ضحكوا منه، قال في غضب وإصرار سترون، كأنما أنبأه الذئب بأنهم فعلا مغادرون، ولم يَفتهُ أن يذكّرهم بذلك لما جاء أمر انتقالهم بكامل عدتهم وعتادهم للقتال في جبهة الجنوب، ثم تراءت له المعلومة وهي غير راضية عن سفره، تحدق فيه بتينك العينين المستغيثتين إنما من دون الابتسامة الخجلى، ولم يتخلص من تلك الرؤيا إلا حين زاره طيف "الجمهورية" الصغيرة وهي تفرد حقائبها وتقدم له أشرطتها، ودميتها التي قالت إنها أسمتها روزا على اسم أم العائلة الإشبيلية التي استضافتها، فشعر بحزن يطغى على قلبه، خاصة حين ذكرت الجمهورية الصغيرة اسم مدينة اشبيلية، وراح يتساءل في حزنه: بعد كل ما جرى، أيهما أفضل الآن، أن تكون سيبيّا الإسبانية؟ أم إشبيليا العربية؟ وابتسم لنفسه وهو يقول: ما ذا سيكون رأي صاحب الإبل يا ترى؟

صلّوا العصر مقصّرين، وعادوا للركوب في سيارتهم التي تصاعد هدير محركها وهي تغالب الريح ميممة صوب الغرب، فكانت الشمس في رحلة أفولها ترسل أشعتها أفقية تصطدم بعيون مُلايْ ورفاق رحلته، مثلما تضيء الجبال والتلال بضوئها المسائي الجميل، حيث تتضاعف الأشياء بطغيان ظلالها التي تمتد لتتشابك

فترسم لوحة بألوان تكاد تكون افتراضية، أطلّت رؤوس جبال لمَرَيْجنَاتْ الصغيرة، وعلى اليمين بدأت معالم منطقة آخشاش تعلن هي الأخرى عن قربها، فقال مُلايْ للذي يليه من رفاق الرحلة: أتعرف ذلك الجبل، فأومأ بلا، فقال له: تلك الكدية تسمى لَمقَيْرينَاتْ (المقرونتان).. أما هناك وأشار إلى الجهة العكسية، فستتوالى كل جبال زمّور لَبْيَظْ، لم تمض ساعتان على مسيرهم حتى تناهت أمام أعينهم خيّم بدو، ثلاثة على اليمين، اثنتان على الشمال، على مسافات مختلفة من الطريق العام، فخففوا من سرعة العربة وأخذوا يتبادلون الرأي، هل يعرّجون عليها أم يواصلون، لكنهم تفاجأوا بمخيم أكبر من اللذين رأوهما حتى ذلك الوقت، خيامه تنتصب في طريقهم بشكل يصعب تجنبه، وحين اقتربوا منه بدت لهم فيه حركة غير اعتيادية، فتبادلوا النظرات بشكل سريع فهم مُلايْ أن رفاق الرحلة قد ارتأوا أن الليل قد قَرُبَ ولا داعي للمبيت في خلاء خالٍ ما دام هناك إمكانية للأنس.

هذه الجبال المتباعدة تسمى الشرائح، قال مُلايْ ضاحكاً: وهي فعلا تشرح النفس، خاصة حين تجد عندها مفاجأة سارة كالتي أمامكم، أترون ذلك النتوء المرتفع على إحداها، هو ما تعرف به: يسمى الإصبع، ويطلقون عليه اسم: إصبع الشرائح. وإذ دخلوا محيط المخيم، شاهدوا خيمة كبيرة سوداء أقيمت على حدة منفردة تجمّع عندها شباب وشابات يرتدون أبهى الملابس، وهم في حالة فرح ظاهر، يبدو أننا، كما أسلفتُ، أتينا في ظرف انشراح لدى هذا المخيم، قد يكون هذا عرس أو حفل بمقدم عزيز، علّق مُلايْ.

أوقفوا مركبتهم وترجلوا منها حين جاء من يرحب بهم، ويدعوهم للدخول، فتغلب الفضول على مُلايْ وسأل: أتلك خيمة عرس أم ماذا؟ فأجابه مضيفه البدوي مبتسماً: لا، إنها حفلة (تخلية) طلاق.



ارتسمت ابتسامات فرح مشوب بتعجب ودهشة على وجوه الضيوف، وانطلقوا خلف دليلهم دون تعليق، إلى أن أدخلهم في خيمة وسط الحي، وجدوا فيها رجلين هيئا عدة الشاي وفراشاً أجلسوهم إليه، وبادر الأسَنُّ من المضيفيْن بصوت مرتفع يطلب من نساء الخيمة أن يمددنه بشراب قدمنه من خلف ستار أبيض من القماش يقسم الخيمة إلى جزأين، لم يفت مُلايْ الانتباه إلى الستار لأنها عادة باتت شبه مندثرة، وفيما هو يفكر في ذلك تناهى إلى مسامعه صوت إحدى النساء تتباهى قائلة: نعم ، لقد اخترت لها ملحفة من أجمل ما عندي، بعد أن عدنا من عند احْدَّيدْهم التي أشرفتْ على عملية لَفْتُولْ (التزيين)، فبعد الحناء، قامت بضفر شعرها ثلاثياً، (ثلاث ضفائر، واحدة من اليمين والثانية من اليسار والثالثة من الخلف وتجمع كلها عند مقدمة الرأس) وزينتها بأجمل ما لديها من لَمّاشعْ (ضفائر اصطناعية مليئة بالأحجار الكريمة كالعقيق، والميّال، ويتدلى من أسفلها حجر من الفضة الخالصة)، وأحضرت خالتها إزاراً أبيضاً ودْباليج فضة مَرْفِيِّين (أساور منقوشة من الفضة)، وقبل أن أجلسها على الفراش المعد لها ألبستها أكادا (نوع من القلائد الكبيرة يتدلى على صدر المرأة) الذي كثيرا ما استعارته مني. أدرك مُلايْ أن المقصود بكل تلك الزينة هي المرأة المطلّقة، فافتعل

حركة اقترب بها من الساتر القماشي، وإذا بأخرى بدا صوتها متهدّجاً مما يدل على تقدمها في السن ترد على الأولى: والرجال هل جاء أحد منهم باتعرقيبة أم لا؟ طبعاً، ردت أخرى بدت كثيرة الحماسة، لو شاهدتها وهي تتربع على عرش الطلاق في كامل افتولها (زينتها) لعلمت أن الرجل سيندم على فعلته، وقد جاء لبّات بجمل، وجاء عبدي بناقة شعلاء، وأحضر خطري بندقيتين وتبارى الكل في الرماية، وضاجت الخيمة بالرقص والغنى إذ أنشدت امّيريّة يا زين سعد اشباب اتخلاّت، وارتجل بعض الشبان الشعر ومازالوا يتبارون فيه حتى الآن. ابتسم مُلايْ، وتمنى لو كان بإمكانه أن يسأل تلك الشابة المتحمسة، لماذا لم يغنوا: لا تلوموني، لا تلوموني، الغائر كالمجنون، إلا أنه آثر الإنصات لاسيما حين قالت أخرى بصوت حزين، ما لا أفهمه لماذا الطلاق؟ فقد كان الرجل يظهر الكثير من المودة والاحترام؟ اسألي أمها، ردت الأكبر سناً، ماذا سأقول لكن، ردت من ظن مُلايْ أنها الأم: اللاّمة ما ضامنها حد (لا توجد علاقة مضمونة الديمومة)، ولكن لماذا السؤال؟ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته؟ لا أظن أن الحياة ستتوقف بسبب ذلك؟ نعم، ذلك أمر صحيح، قالت العجوز ذات الصوت المرتجف، لكن مثله ممن لا يُفرّط به من الأزواج، فهو ميسور الحال، وكان يدللها، ولا أعلم منه البخل، ومتى كان المال بديلا عن كرامة الواحدة منا؟ ردت الشابة المتحمسة، اسكتي أنت صغيرة، قالت لها العجوز، وقد تدفعك الغيرة مثلما دفعت بابنة خالتك إلى الطلاق في الوقت الذي كان بالإمكان إيجاد مخرج آخر، هل سألته واحدة منكن عن سبب الانفصال؟ ومن منّا ستفعل ذلك؟ ردت الأم، أتريدين أن نستجديه، أو نتذلّل له؟ هل انتفى الرجال من الأرض ولم يبق غير هذا المتعالي الذي يظن أنه يستطيع فعل ما يشاء؟ لا تذهبي بعيداً، ردت العجوز، إنما الزواج رباط مقدس، وعلاقة مودة ورحمة بين الأزواج وبين الأهل وفي كامل المجتمع، والطلاق بغيض كما تعلمين، وكلما استطعنا درءه كان ذلك أفضل، ساد صمت ظن مُلايْ أن الأم ربما ندمت على ما حصل أو شيء من هذا القبيل، لكن صوتها عاد بعناد وحزم وهي تقول: تعلمين أيتها الجدة إنني سعيت لزواجهما، وإنني لم أبخل عليهما بالنصح والإرشاد، لكنني لا أقبل الإهانة لابنتي، وما يغيظني أكثر، هو أن زوجي غير متحمس لفكرة الطلاق، وذلك ما جعلني أدافع عن ابنتي بأظافري ولم أقبل إلا بالذي ارتضته هي لنفسها خاصة حين صممت على الطلاق ولم تقبل له بديلاً، والزوج ماذا يقول؟ أعني كيف يفسر ما جرى؟ سألت العجوز من جديد، أنت تعرفين الرجال أيتها الجدة، ردت الأم، نعم هم ناعمو الملمس كالقطط، يتقنون إخفاء مآربهم بالتملق والكلام المعسول.. وسكتت قليلا كأنما تذكرت شيئا من ماضيها الشخصي، لتواصل: جاء وجلس أمامي معتذراً، ولما واجهته بما تغاضت عنه زوجته من نزوات وطيش خلال السنتين الماضيتين، بالغ في التواضع متهربا حتى من الاعتذار، وطلب مني مساعدته في إقناعها للعدول عن رأيها، فقلت له أنتما إصبعا عسل عندي ولن أنحاز لواحد منكما دون الآخر، وهاهي زوجتك اتفقا على ما تريدان وسأبارككما، وخرجتُ تاركة لهما مجال الكلام فيما بينهما، لكن تلك الجلسة لم تزد الزوجة إلا إصراراً

على أن الخيار الأمثل لكليهما هو الطلاق، رغم أنه راودها كثيراً، كما أخبرتني لاحقاً، بعد أن جاءني مكتئباً، وقال: ستنال عزيزة مرادها ولتعلمي أنني أفعل ذلك مُكرهاً، وبما أنني فشلت في الاحتفاظ بها بطيبة خاطرها، فإنني لن أفشل في تمكينها مما تريد حتى ولو كان آخر شيء أفعله من أجلها، سأذهب اليوم إلى القاضي لأكتب لها ابْراوَتْها (ورقة الطلاق).

عدّل مُلايْ من جلسته، وابتسم حين دار في خَلَدِهِ، لو علم صديقي موسى بكل هذا، ربما ظن أنها تطلّقتْ من أجله، حتى وإن كان لا يعرفها.

انتهى

